الفصل الرابع
من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان

فصل من أمتع فصول الرحلة، بل أمتعها، وكلها ممتع

يمكن تلخيص «**التجربة الوجودية والفكرية**» فى حياة د. المسيرى فى ثلاث مراحل:

- **هيمنة النموذج المادى الفلسفى** (الأفكار المادية) عليه بعض الوقت، بعد أن اجتاحه الشك فى دمنهور.
- **ثم إدراكه التدريجى لعدم قدرة هذا النموذج المادى على الإحاطة بالظاهرة الإنسانية المركبة**، نظرًا لبساطة هذا النموذج وسذاجته واختزاليته.
- ثم إحساسه المتزايد بضرورة **تبنى نماذج تحليلية مركبة متعددة الأبعاد والمستويات**، إن أراد المرء أن يرصد إنسانية الإنسان (ليس فقط طبيعته المادية).

obeikandl.com

الحضارة الغربية الحديثة

الحضارة الغربية الحديثة – فى تصور د. المسيرى – حضارة عقلانية مادية (لا عقلانية وحسب). إنجازاتها الضخمة (التكنولوجيا – العلم – السيطرة على العالم) نتاج رؤيتها المادية التى تطلبت استبعاد كثير من العناصر الأخلاقية والإنسانية (العناصر غير المادية) وذلك لتبسيط الواقع بهدف التحكم فيه (**إذ لا يمكن التحكم إلا فيما هو بسيط**).

أما إخفاقات الحضارة الغربية الحديثة فلا تقل ضخامة عن إنجازاتها (الأزمة البيئية – الحروب العالمية – فقدان الاتجاه؛ أى أن لا يعرف الإنسان أين هو ذاهب – ظهور العبثية؛ أى أن يتصور الإنسان أن العالم لا معنى له وأن الصدفة العمياء تتحكم فيه – وكذلك تحول الوسائل إلى غايات)، وهذه الإخفاقات أيضًا من نتاج رؤيتها المادية.

وتمثل الحضارة الغربية «نموذجًا ماديًا» ذو جانبين:

جانب فلسفى (الأفكار المادية التى هى نتاج العقل المادى).

وجانب تطبيقى عملى وهو المتمثل فى الحضارة الغربية الحديثة بإيجابياتها وسلبياتها.

«العقل المادى ← الفلسفة المادية ← الحضارة الغربية الحديثة»

وسنقوم فى هذا الفصل بعرض نظرة د. المسيرى للحضارة الغربية الحديثة وموقفه منها تحت خمسة عناوين رئيسية:

- تآكل النموذج المادى فى فكر د. المسيرى لحساب النموذج الإنسانى الإيمانى: ونعرض فيه كيف أكتشف د. المسيرى عجز الفكرالمادى عن الإحاطة بإنسانية الإنسان، وضرورة أن ننظر للإنسان من خلال نموذج يحيط بالثنائية التى تميزه.

- سمات العقل المادى: ويتعرض للجانب الفلسفى للحضارة الغربية.
- طوفان النموذج المادى وسلبياته: ويتعرض للجانب التطبيقى والعملى للحضارة الغربية.
- العلم والتقدم: يوضح كيف أن الحضارة الغربية التى حققت التفوق العلمى لم تحقق التقدم المنشود للبشرية.
- إدراك ثنائية الإنسان ومراحل التحول: كان طبيعيًّا أن تفرز النقاط الأربع السابقة إدراكًا لثنائية الإنسان الربانى (جانبه المادى وجانبه الروحى).

تآكل النموذج المادى فى فكر د. المسيرى لحساب النموذج الإنسانى الإيمانى

الثمرة الحادية والأربعون...

أيها الإنسان... من أنت؟

*** من عرف نفسه، عرف ربه**

إن الإنسان هو أكرم المخلوقات فى الكون، مختلف بشكل جوهرى عن بقية الكائنات، حتى وإن شاركها بعض صفاتها، فهو يعيش فى الطبيعة لكنه منفصل عنها. وصفات «**الطبيعة**»، فى الفكر الغربى، هى ذاتها صفات «المادة»، **وكلما وردت كلمة «طبيعة» يجب أن تحل محلها كلمة «مادة» ولهذا نكتبها «الطبيعة / المادة»**.

ويتسم الوجود بثنائية أساسية، أسميها «**الثنائية الفضفاضة**»:

فهى ثنائية **الخالق** (المنزَّه عن الإنسان والطبيعة والتاريخ) **والمخلوق** (الإنسان والطبيعة).

obeikandl.com

وهى فضفاضة: إذ إن **الإله مفارق للعالم (غير متلبس به أو حال فيه) إلا أنه لم يهجره ولم يتركه وشأنه**. وينتج عن هذه الثنائية الأساسية (الخالق والمخلوق) ثنائيات عدة، من أهمها **ثنائية الإنسان والطبيعة**، وترى هذه الثنائية انفصال الإنسان عن الطبيعة واستحالة تفسيره فى إطارها لأن الإله خلقه وكَرَّمه واستخلفه فى الأرض. لذلك فالإنسان ليس مركزه الكون، وإنما وُضع فى مركزه، وليس مالكًا الطبيعة، بل خليفة فيها من قِبَل خالقها (خليفة من الله وليس خليفة عن الله).

والثنائية غير الإثنينية، ففى **الثنائية** ثمة عنصران يتفاعلان ويتدافعان وربما يتكاملان. أما فى **الإثنينية** فهناك عنصران متضادان متعادلان (مثل إله الخير والنور وإله الشر والظلام فى بعض العبادات الوثنية)، ولذا يدخلان فى صراع أزلى أو شبه أزلى.

والثنائية تقف على طرف النقيض من «**الواحدية المادية**» التى يؤمن بها الفكر المادى، والتى تذهب إلى أن الوجود بأسره (الإنسان والطبيعة) جوهر واحد.

وبدلًا من مفهوم (الإنسان الطبيعى) الذى تنطبق عليه نفس القوانين التى تنطبق على الطبيعة / المادة، طرحتُ فكرة **الإنسان الإنسان** (أو **الإنسان الربانى**)؛ كائن لا يعلمه فى كُليته إلا الله، إذ إن **هناك جزءًا منه قادر على تجاوز عالم المادة**. وهو كائن يعيش داخل **جسده** المادى، ويتحرك حسب القوانين والدوافع الفيزيائية والبيولوجية والغريزية، ولكن **روحه** تتجاوز عالم المادة إلى عالم المُثل والثبات والغيب، **كائن أقدامه مغروسة فى الوحل وعيونه شاخصة للنجوم، يسقط دائمًا ولكنه قادر على النهوض ثم التجاوز**.

ووجود الله هو الضمان الوحيد لوجود هذا الإنسان الإنسان، بجزأيه

المادى وغير المادى، **فالله هو الجوهر الذى يتطلع إليه الإنسان ويحقق من خلاله الانطلاق من طينته**. ومن ثم بغياب الله يتحول الإنسان إلى مادة طبيعية صماء، خاضعة لقوانين المادة، التى يمكن حصرها ودراستها والتحكم فيها، وكذلك بغياب الله يتحول الإنسان إلى كم مادى يمكن تفسيره فى إطار مجموعة من المعادلات الرياضية الميتة التى يمكن معرفتها والتنبؤ بها (إذا تعرضت لموقف كذا، سيكون سلوكك كذا).

الثمرة الثانية والأربعون...

الطريق إلى العثور على الذات

لم يكن مفهوم «الإنسان الإنسان» غير المادى متبلورًا وواضحًا فى وجدانى وعقلى، ولكنه كان هناك، كامنًا ودفينًا. وقد ساعدت عناصر عديدة هذا النموذج على الظهور:

1- **بذور التراحم** التى أُلقيت فى تربتى الفكرية خلال نشأتى فى المجتمع التقليدى فى دمنهور، بالإضافة إلى ثقافتى الإسلامية التى تلقيتها وقتئذ.

2- **دراستى للأدب**، فالأدب يكاد يكون التخصص الوحيد الذى لا يزال يتعامل مع الإنسان بوصفه كلًّا مركبًا لا يمكن رده إلى عنصر أو عنصرين يُفسَر فى ضوئهما (على عكس الاقتصاد، على سبيل المثال، الذى يدرس الإنسان، فى معظم الأحوال، فى إطار المعطيات الاقتصادية وحسب). وكانت دراستى للأدب الإنجليزى فى فترة شاع خلالها **التيار الإنسانى (الهيومانى)** الذى يضع الإنسان فى مركز الكون ويؤكد اختلافه الجوهرى عن باقى المخلوقات، كما يؤكد منظوماته الجمالية والأخلاقية (حتى وإن أنكر منظوماته الدينية).

3- حينما قررت **الارتباط بالدكتورة هدى، ظهر تناقض بين النموذج المهيمن علىَّ (الفكر المادى) وبين العاطفة** وما ينبنى عليها من سلوك. ثم اكتشفت أن ماركس عرَّف الزواج بأنه «**علاقة اقتصادية مفعمة بالحب**»، أى أنه تبنى مقياسين: أحدهما مادى والآخر غير مادى، وقد أرضانى هذا المفهوم كثيرًا، فاستوعبت قرار الزواج من د. هدى داخل منظومتى المادية.

4 - حينما **رزقنى الله ابنتى نور**، وجدت نفسى أنا العقلانى المادى وجهًا لوجه مع معجزة جعلتنى أغرق فى التأمل، طفلة تولد، وبعد ولادتها بلحظات تنظر بعينيها الواسعتين حولها. ووجدت زوجتى تتحول بين يوم وليلة إلى أم تُطعم الصغيرة بثدييها وترتبط بابنتها ارتباطًا جنونيًّا لم أرَ مثله. زميلتى فى الجامعة التى كنت أذهب معها إلى السينما والرحلات أصبحت أمًّا ودخلت عالمًا جديدًا أقف أنا على أطرافه دَهِشًا، وأحسست بالهجران. ثم فوجئت بأن زوجتى قررت ألا تستمر فى دراستها العليا؛ لأنها لا تريد أن تحرم ابنتها من حق ممارسة كل وظائفها البيولوجية بما يتفق مع إيقاعاتها الجسدية ويريحها عصبيًّا. ساعتها فزعت من نفسى لأننى لم أفكر فى هذا، ولم أفكر إلا فى الأداء والإنجاز المادى فى رقعة الحياة العامة.

وبدأت أتأمل فى هذا الكائن الجديد الذى دخل حياتى: هل يمكن أن يكون كل هذا نتيجة تفاعلات كيمياوية وإنزيمات وغدد وعضلات؟! «**هل هذا الكل الإنسانى هو جماع أعضائه المادية وثمرة المصادفة، أم أن هناك شيئًا ما يجاوز السطح المادى؟**» هل الإنسان فعلًا جزء من الطبيعة، خاضع لقوانينها وأهوائها، أم أن فيه أسرارًا وأغوارًا؟، لقد **أصبحت ظاهرة الإنسان بالنسبة لى ظاهرة غير مادية غير طبيعية، معجزة بكل المعايير المعروفة لدى.**

5- ثمة ليلة لن أنساها أبدًا، أسميها «ليلة بكاء الطفلة»، إذ استيقظت ابنتنا نور وهى لم تكمل عامين بعد، وأخذت تبكى بصوت عال، مزيج من الفزع والحزن لم ندرك سببهما، كلما حملتها أمها على كتفها سكتت، ولكن إذا اقتربْتُ منها تصرخ بأعلى صوتها، وظلت أمها معها إلى أن نامت. لقد **أدركت ما فى داخلنا من أسرار وأدركت مدى احتياجنا للأم**.

6- حينما رزقنا الله ابننا ياسر، تصورت أنا وزوجتى أننا تدربنا على تنشئة الأطفال، وإذا به مختلف تمامًا عن أخته وتطلبت تنشئته مهارات أخرى. فابنتنا نور تحب التجريب ولا تخشاه وتتميز بقدراتها اللغوية. أما ياسر، فهو يكره التجريب، ويعيش فى عالم الأرقام. ونتيجة لهذا الاختلاف، **ترسخ اعتقادى بالإنسان المعجزة الذى يجاوز الحتميات الطبيعية** (فى هذه الحالة العوامل الوراثية والبيئية التى يتفق فيها ياسر مع نور). كما بدأت أدرك أهمية الأسرة فى عملية التنشئة، وتساءلت، كيف يمكن للموظف «المختص» بتنشئة الأطفال فى المجتمع الشيوعى - مهما بلغ من تخصص - أن يدرك الاحتياجات النفسية للطفل، والتى تختلف من طفل لآخر.

7- اكتشفت إبَّان إقامتى فى الولايات المتحدة أن كل **أصدقائى ومن ترتاح إليهم نفسى** إما من أصل كاثوليكى أو يهودى، وأنهم من أصول أوروبية لم تسيطر عليهم المادية الأمريكية الصارمة. كما بدأت أُلاحظ أنماط السلوك بين الطلبة، فكنت أقرر أن هذا لا بد أن يكون كاثوليكيًّا أو يهوديًّا أو يكون بروتستانتيًّا. فالكاثوليك أقل فردية من البروتستانت، نتيجة لانتمائهم للكنيسة مما يجعل الفرد يدرك نفسه باعتباره عضوًا فى جماعة، كما أن الرابطة الأسرية بين الكاثوليك لا تزال أكثر قوة من الأسرة البروتستانتية.

8- حينما عدت إلى مصر عام 1969 سكنت فى **مصر الجديدة** وأحببتها لمعمارها الإسلامى البلجيكى، كما أُعجبت بتداخل المناطق السكنية مع المناطق التجارية، دون أن تقتحم إحداهما الأخرى. وحينما ذهبت إلى **المعادى**، لم تلق أى صدى فى نفسى بفيلاتها المنعزلة. وبعد أن تأملت قليلاً وجدت أن الذى أسس مصر الجديدة كانوا من البلجيكيين الكاثوليك (والكاثوليكية تؤكد فكرة الجماعة والمجتمع)، أما المعادى فقد أسسها البريطانيون البروتستانت الذين لا يكترثون بالعلاقات الإنسانية كثيرًا.

9- ثم كان لقائى مع **سيرة الزعيم المسلم مالكولم إكس** الذى كان يعمل قوادًا ومهربًا للمخدرات. وحينما دخل السجن، أقنعه المسلمون السود بالدخول فى الإسلام، وبدأت حياته فى التغير. فبدأ يدرك **عالمية الرؤية الإسلامية للإله (ربِ العالمين)، وأنه بعيد كل البعد قريب كل القرب فى آن واحد، كما أدرك الطبيعة الجماعية للإسلام** (فى مقابل الفردية الأنانية فى المجتمع الأمريكى). وفى أثناء حجه إلى مكة، **اكتشف إمكانية تحقيق المساواة بين البشر**، فتجاوز كرهه للبيض، وعاد إلى الولايات المتحدة لينظم حزبًا جديدًا يجمع بين البيض والسود فى رفضهم للمادية، فحصدته الرصاصات الغادرة.

الثمرة الثالثة والأربعون...

الدين كمنظور شامل ينتظم الحياة كلها

خلاصة الأمر أننى اكتشفت الدين كنموذج معرفى متكامل وليس مجرد جزء ليس له أهمية فى حد ذاته، واكتشفت أن المكوّن الدينى ليس مجرد قشرة وإنما هو من جذور الكيان والهُوية. كما بدأت أشعر أن الدين ذو فعالية فى

الواقع المادى الذى نحياه وليس جزءًا مغلقًا من عالم الغيب، وهكذا زاد اتساع الثغرة التى تفصل «الإنسان الإنسان» عن التصور المادى البسيط، وزاد دور الأفكار (عالم الروح) فى تفسير ظاهرة الإنسان، أى أن الدين أصبح تدريجيًّا فى تصورى جزءًا من الكيان الإنسانى وليس منفصلًا عنه.

سمات العقل المادى

من أجل أن نفهم الحضارة الغربية الحديثة، بإيجابياتها وسلبياتها يحلل لنا د. المسيرى سمات العقل المادى، الذى أفرز هذه الحضارة:

الثمرة الرابعة والأربعون...

العقل المادى: عقل محايد

العقل المادى عقل محايد. **لا علاقة له بالأخلاق أو بالأسئلة الكلية (الخاصة بالغرض من وجود الإنسان فى الكون)، أو بالمقدس أو بما يتجاوز عالم الحواس الخمس المباشر.** وهو موصل جيد لما يدخله من معلومات ومعطيات فيتعامل معها ولا يمكنه أن يتجاوزها. لذا فهو لا يفرز سوى ما يمكن تسميته «منطق الأمر الواقع» أو «**أخلاق الصيرورة**»، أى أنه لا يعترف بوجود قيم أخلاقية أو إنسانية ثابتة مستقرة، ويرى أن كل شىء - بما فى ذلك القيم - فى حالة تغير وتحول دائمين، ولذا فعلى الإنسان أن يستمد قيمه من واقعه المتغير الذى صار إليه.

والعقل المادى فى الوقت ذاته لا يهتم بالسمات الخاصة للظواهر أو بخصوصيات كل إنسان فرد، فهو يركز على الجوانب العامة، كأنه **يتأرجح بعنف بين «العام» الموغل فى العمومية و«الخاص» الموغل فى الخصوصية**

(لسقوطه فى **التفاصيل** بسبب التصاقه بعالم الحواس). ويمكن تشبيه العقل المادى بأشعة إكس؛ التى يمكنها أن تعطينا صورة للهيكل العظمى للإنسان ولكن لا يمكنها أن تنقل لنا صورة الوجه الإنسانى فى أحزانه وأفراحه. وكذلك يشبه الميكروسكوب الذى يعطينا أدق تفاصيل الخلية دون أن ينقل لنا الصورة الكلية لهذه الخلية. ونخلص من كل هذا إلى أن العقل المادى **عقل عنصرى إمبريالى** لأنه يُسقط مفهوم الإنسانية المشتركة ولا يجيد إلا اختزال الواقع فى جانبه المادى فقط بهدف الاستفادة منه.

الثمرة الخامسة والأربعون...

العقل المادى: معادٍ للتاريخ،

يقدس الأمر الواقع على حساب الحق التاريخى

لما كان التاريخ بنية غير مادية، تتسم بالتركيب والإبهام، فلا يمكن للعقل المادى أن يتعامل معه بكفاءة (فهو يجيد التعامل مع الأرقام والكم والكثافة والحجم والوزن) خاصة وأن التاريخ من صنع الإنسان الإنسان (بجانبيه المادى والروحانى).

الثمرة السادسة والأربعون...

العقل المادى وإعادة تشكيل الإنسان فى الإطار المادي

عملية تفكيك ثم عملية إعادة تركيب

*** التفكيك: رد الإنسان إلى المادة.**

من أهم صفات العقل المادى أنه يرد كل شىء – بما فى ذلك الإنسان – إلى المادة، أى أنه يقوم بهدم الإنسان وتفكيكه إلى عناصر مادية أولية. ويرى

obeikandl.com

الفكر المادى أن الدماغ يفكر كما تهضم المعدة الطعام وكما تفرز الكبد الصفراء. وهذه الرؤية المادية للإنسان ترده إلى طينته وتنزع عنه القداسة وتفقده مركزيته فى الكون.

ولعل **هوبز** هو أول مفكر وضع يده على المفاهيم المظلمة فى العقلانية المادية حين أعلن أن حالة الطبيعة (وهى حالة الإنسان بعد إقصاء الإله عن الكون) هى حالة من حرب الجميع ضد الجميع، فالإنسان ذئب لأخيه الإنسان، ويتم التعامل الاجتماعى بين البشر لا بسبب فطرة خَيِّرة فيهم وإنما من فرط خوفهم وبسبب حب البقاء، فيُنَصِّبون الدولة التنين حاكمًا عليهم حتى يمكنهم أن يحققوا قدرًا ولو قليلًا من الطمأنينة. وقد اتفق معه ماكيافللى فى هذا، وأعلن أن الغاية تبرر الوسيلة.

أما **إسبينوزا** فقد قدم عالمًا آليًّا تمامًا، لا تُستثنى من قوانينه الذات الإنسانية. وحول هذا المعنى قال الفلكى **لابلاس** لنابليون: إن تصوره لبنية الكون لا يحتاج لافتراض وجود إله.

وبَيَّن لوك أن العقل صفحة بيضاء تتراكم عليها المعطيات وأن ليس هناك دور لفطرة خيرة توجهه. وبيَّن الماركيز دى صاد وفرويد أن الإنسان يحوى الذئب داخله (دوافع) وخارجه (سلوك)، وأن ذاته المتحضرة إن هى إلا قشرة واهية تخبئ ظلمة تمور داخل الإنسان ومِن حوله. ويرى دارون ضرورة الصراع من أجل البقاء، وأن البقاء للأقوى. وقد أعلن **نيتشه** أن الذات الإنسانية بما تفرضه من مُثُل وهمية هى إحدى الحيل التى يحاول بها الضعفاء أن يخنقوا حقوق الأقوياء.

ويرى **ماركس** أن الذات الإنسانية المستقلة وهم ما بعده وهم، فوراء المُثل والقيم يوجد الصراع الطبقى ووسائل الإنتاج. ويصل هذا الاتجاه إلى

قمته فى فكر ما بعد الحداثة (**فوكوه ودريدا**)، فلا توجد ذات إنسانية تميز الإنسان بما تحمله من قيم ومُثل عما حوله من الماديات، كما لا توجد غاية للوجود الإنسانى.

التركيب: كائن «منتج» «مستهلك» «مستمتع» فى ظل قوانين السوق،

عن طريق الترشيد البرانى والترشيد الجوانى

إن العمود الفقرى لقوة الولايات المتحدة (قمة المجتمعات المادية) يكمن فى أنها قد نجحت فى **ضبط سلوك مواطنيها وتوجيههم نحو هدف واحد: الإنتاج والاستهلاك**، ومن أجل أن يتحمل الإنسان هذه الطاحونة **أُشبعت كل غرائزة المادية**. وأصبح البشر يتبنون هذه المُثُل كهدف نهائى ويسعون من أجل تحقيقها.

وقد تم تحقيق هذا الهدف من خلال آليتين تحققان عملية ضبط كاملة:

الترشيد البرانى (الخارجى): وهو توجيه سلوك الإنسان(من الخارج) نحو الإنتاج والاستهلاك، وذلك من خلال النظم والقوانين.

الترشيد الجوانى (الداخلى): وهو جعل الاستهلاك غاية وحُلم، يسعى الإنسان إلى تحقيقه (إعادة تشكيل من الداخل).

وفى **الترشيد البرانى** يجتهد العقل المادى فى **إتقان توظيف الوسائل للوصول إلى الغايات المادية**، دون النظر إلى عواقب هذه الغايات. ألم يفعل ذلك المجتمعان النازى والصهيوني؟! مجتمعان يستخدمان العلم والتكنولوجيا بكفاءة غير عادية فى البطش والقتل للوصول إلى ما لا حق لهم فيه.

ولعل الولايات المتحدة هى البلد الذى تم فيه ترشيد جوانب الحياة بشكل يكاد يكون كاملًا. **فالإعلام الأمريكى** ينجح تمامًا فى عزل الإنسان الأمريكى عن الأحداث العالمية. لا أنسى يوم 6 من يونية سنة 1967 حين نشرت الصحيفة المحلية خبر اندلاع الحرب فى ثلاثة سطور فى الصفحة الثالثة. وفى أثناء انتخابات الرئاسة (عام 2000) لم أسمع تصريحًا واحدًا عن السياسة الخارجية؛ لأن القضية الأساسية التى شغلت الرأى العام الأمريكى آنذاك هى شخصية آل جور، وهل قَبَّل زوجته فى شفتيها أمام مؤتمر الحزب الديمقراطى بحرارة زائدة أم حرارة معقولة؟، وحين كانوا يتطرقون للسياسة كانوا يتحدثون عن تكاليف الرعاية الطبية والضرائب. وينتج عن هذا كله **تبسيط الوجدان السياسى للإنسان الأمريكى وإلغاء قدراته النقدية، بحيث يمكن للسلطة الحاكمة أن تملى عليه ما تريد من أفكار يعتنقها بتلقائية وحرية كاملتين!** (الترشيد الخارجى آلية تُيَسر الترشيد الداخلى).

ومن أهم جوانب الترشيد البرانى أنه لا توجد أى ضمانات للعاملين أن يستمروا فى وظائفهم فيعيشوا فى قلق دائم، الأمر الذى يزيد من إنتاجيتهم **(فالإنسان السعيد المتزن مع نفسه تقل إنتاجيته بعض الشىء، إذ يتبنى أهدافًا إنسانية فى الحياة)**. وحينما تقرر الشركة تحسين صورتها الإعلامية يأتى أحد المحاسبين ويحدد الميزانية المطلوبة (تبرع لمتحف – لمرضى السرطان – لمكتبة...) ولكن عليه أيضًا أن يحسب العائد الإعلامى للشركة، والأرباح التى تحققها من جَرّاء ذلك والإعفاءات الضريبية... إلخ.

ويُعتبر **التليفون المحمول** (رمز الوجاهة وأداة الثرثرة فى بلدنا) واحد من أهم آليات الترشيد، إذ إن المؤسسة الأمريكية يمكنها أن تصل إلى كل العاملين فى أى زمان ومكان، مما يعنى مزيدًا من تآكل رقعة الحياة الخاصة لحساب الإنجاز المادى.

وإذا نظرنا إلى **صناعة تصميم الأزياء** نجد أنها تقوم بضبط سلوك المرأة (ترشيده) فتضع لها الخطوط الأساسية التى تتحرك داخلها (الفستان الطويل الأخضر هو الموضة هذا العام، أما العام الذى يليه فإنه إما يكون كذا أو كذا، «ودوخينى يا لمونة»!) وبذلك يمكن التنبؤ بسلوك المرأة واستيعاب أحلامها داخل خطوط الإنتاج.

وفى **الترشيد الجوانى**، يصبح **الاستهلاك هو حلم الإنسان** الذى يوجه من داخله كل جوانب حياته. وبالإضافة إلى هذا الجانب الاقتصادى، فإن للترشيد الجوانى جانبًا آخر، فالولايات المتحدة تضم شعوبًا ذات أصول عرقية ودينية مختلفة، والأفراد فيها لهم ولاءات متعددة وأحلام مختلفة: فردية وعائلية وقبلية وقومية ودينية. كل هذا يجعل من عملية ضبط مثل هذه المجتمعات مسألة صعبة، ويتطلب هذا **جمعهم حول حلم الاستهلاك**. وتلعب هوليود دورًا أساسيًا فى عملية الترشيد هذه، فهى تعيد تشكيل صورة الإنسان وأحلامه.

وإذا كان الترشيد بنوعيه يهدف إلى إعادة صياغة المجتمع الإنسانى (بل والإنسان نفسه) ليتوافق مع قدرات وغايات العقل المادى، فإن «**العولمة**» هى الترشيد المادى على مستوى العالم، بحيث يصبح سوقًا ضخمة، ويصبح البشر فى كل الدول كائنات ذات بعد مادى فقط (إنتاج واستهلاك واستمتاع).

ويمكن القول بأن **النموذج الكامن** وراء معظم الأيديولوجيات العلمانية الشاملة (النازية – الماركسية – الليبرالية – الصهيونية) هو ما يسمى «**التطور أحادى الخط**» Unilinear، أى الإيمان بأن التقدم المادى للمجتمعات والظواهر البشرية هو التطور الوحيد ذو البال. وتتصاعد عمليات الترشيد المادى إلى أن يتحقق حلم **اليوتوبيا التكنولوجية**، حين تتم برمجة كل شىء، والتحكم فى كل شىء، وضمن ذلك الإنسان، ظاهره وباطنه. وعمليات

الترشيد تأخذ شكل مراحل تمر بها كل المجتمعات البشرية (ومن هنا ولع الفكر الغربى **بتقسيم التاريخ إلى مراحل محددة**).

*** الإنسان من الرؤية الآلية إلى الرؤية العضوية إلى اللاشىء.**

شهد القرن التاسع عشر انتقالًا تدريجيًّا من الرؤية الآلية للإنسان إلى الرؤية العضوية. فإذا كان نيوتن قد جعل من الكون ساعة والإله هو صانع الساعات الماهر (**الرؤية الآلية**)، فإن **عالم داروين العضوى** يختفى منه «الإله» تمامًا، فأصول الإنسان – حسب تصوره – تعود لأسلاف القردة العليا ومن قبلها الزواحف. ثم يؤكد **فرويد** أن غابة القردة تقع داخل الإنسان على شكل «لا وعى» مظلم وغرائز متفجرة. وقد أجرى العالم الروسى **بافلوف** تجاربه على الكلاب، ثم طبق نتائجها على الإنسان، إذ كان يفترض أنه لا توجد فروق جوهرية بين كليهما. وأخيرًا يأتى فوكوياما (فيلسوف ما بعد الحداثة) ليزيد الطينة بله، إذ يقارن الإنسانية ببعض الأشكال التى خُطت على الرمال، ثم تمحوها الأمواج! (فأصبحنا لا شىء).

وهكذا يتم **تفكيك** الإنسان تمامًا (رده إلى ماديته)، ثم **إعادة تركيبه** كمنتج ومستهلك ومستمتع خالى من المنظور الإنسانى، ويكون ذلك بإعطائه الرؤية الآلية تارة ثم الرؤية العضوية تارة أخرى وأخيرًا يتحقق منظور ما بعد الحداثة فى أن الإنسان لن يعبد شيئًا ولا حتى نفسه، وأنه سينزع القداسة عن كل شىء، حتى عن نفسه.

*** النتائج: تمخض الجبل فولد فأرًا.**

أدت عملية إعادة تشكيل الإنسان وتصاعد معدلات الترشيد فى المجتمع إلى اختفاء التميز الفردى واختفاء القيم الثقافية والروحية والعقل النقدى، حتى **أصبح الإنسان كائنًا ذا بعد واحد يرتبط وجوده بالاستمتاع والاستهلاك والسلع (فهو إنسان حيوانىّ متسلع متشيئ)، عقله ينشغل**

بالوصف والرصد وإدراك الآليات، عاجز تمامًا عن إدراك الأغراض النهائية للوجود. وفى النهاية تمت الهيمنة الكاملة على الإنسان حتى وُصفت الحضارة الحديثة بأنها «**القفص الحديدى**».

وحينما سُئل فاكيلاف هافل (رئيس جمهورية التشيك السابق) عن الأسباب التى أدت إلى هذا الوضع، أجاب قائلًا: «هذا الوضع له علاقة بأننا نعيش فى **أول حضارة ملحدة فى التاريخ البشرى**. فلم يعد الناس يحترمون ما يُدعى القيم الميتافيزيقية العليا، والتى تمثل شيئًا أعلى مرتبة من ماديتهم، شيئًا مفعمًا بالأسرار. هذه القيم الأساسية كانت تمثل دعامة للناس، وأفقًا لهم، ولكنها فُقدت الآن. وتكمن المفارقة فى أنه **حينما أعلنت الإنسانية أنها الحاكم الأعلى للعالم، فى اللحظة نفسها، بدأ العالم يفقد بعده الإنسانى**».

طوفان النموذج المادى وسلبياته
(الحضارة الغربية الحديثة)
(العقلانية المادية والاستنارة المظلمة)

يخبرنا د. المسيرى **أن الفرق شاسع بين ما يبشر به النموذج المادى الفلسفى** (مثالياته التى كان يؤمن بها) **وبين الواقع الغربى** كما عاشه ورصده (سلبياته).

وفى الثمرات القادمة نعرض لسلبيات النموذج المادى:

الثمرة السابعة والأربعون...

كيف أدركتُ ظُلمة الاستنارة

حينما بدأت التدريس فى مصر عام 1969، ألقيت محاضرة عن الحضارة الغربية المستنيرة، **نوهت فيها بمناقبها الكثيرة بما فى ذلك عقلانيتها**. ولكنى

فى المحاضرة التالية كنت أُدَرِّس الشعر الإنجليزى الحديث، وكان موضوعها قصيدة ت. س. إليوت: «الأرض الخراب Land Waste The»، فتحدثت عن **أزمة الإنسان الحديث وتفتته واغترابه عن ذاته وعن الطبيعة**. وبينما كنت ألقى محاضرتى، أحسست بسخفى الشديد: كيف يمكن أن أُبَشر بالحضارة الغربية باعتبارها حضارة الاستنارة من الساعة التاسعة حتى الساعة التاسعة وخمس وخمسين دقيقة، ثم أُبيّن لنفس الطالبات أنها فى واقع الأمر حضارة الأرض الخراب من الساعة العاشرة حتى الساعة العاشرة وخمس وخمسين دقيقة؟ كان **لا بد أن أجد تفسيرًا لهذا التناقض**. ومن الطريف أننى كنت أكتب قصائد عن سلبيات الحضارة المادية، مثل غربة الإنسان وخيانة القيم... إلخ، وهى موضوعات ليس لها علاقة بتجربتى الشخصية وتتنافى مع رؤيتى الخاصة، ما أشبه ذلك بالمراهق الذى يكتب شعرًا عاطفيًا عن هجر الحبيب وهو لم يذق الحب بعد.

وكنت مرة أجلس مع ابنى، وهو بعد طفل، نشاهد التليفزيون، وسمع من المذيع أن **الغرب قد راكم من الأسلحة النووية ما يكفى لتدمير العالم أكثر من مائة مرة**، ففوجئت به يضحك ملء شدقيه ويخبرنى بشىء بدهى فاتنى، وهو أنه بعد تدمير العالم مرة واحدة، لا يمكن تدميره مرة ثانية، ساعتها ضحكت أنا الآخر، وتدعمت شكوكى حول العقلانية العجيبة للعالم الغربى «المتقدم».

وفى لقائى مع كبار الكُتَّاب الأمريكيين، كنت أحدثهم بحماسة شديدة عن **الإنسانية (الهيومانية)** humanism والاستنارة والعقل والعقلانية الغربية، فكنت أفاجأ بأنهم يتحدثون عن **اللاعقل واللاوعى والمخدرات والعبث والأساطير والفن البدائى والذوبان فى الكون**. كما لاحظت تزايد إشاراتهم السلبية إلى مفهوم إنسانية الغرب وإشاراتهم الساخرة إلى فكر

حركة الاستنارة، فاكتشفت ساعتها أننى ملكيًّا أكثر من الملك. فالحضارة الغربية التى عرفناها ونشأنا على الإعجاب بها، بعقلانيتها وإنسانيتها، كانت تعالج سكرات الموت بعد أن سدد نيتشه إليها ضربته الأولى (من المؤلم حقًّا أن بعض دعاة الاستنارة والتغريب فى مصر يترجمون أعمال نيتشه وغيره ويعرضونها بحُسبانها جزءًا من عملية «التنوير»!).

ومما ساعد على تعميق شكوكى بخصوص النموذج المادى الغربى، دراستى **للحركة الرومانتيكية**، فهى فى جوهرها كانت **ثورة على الفكر العقلانى المادى الآلى** الذى ساد فى أوروبا فى القرن الثامن عشر. فهذا الفكر لا يرى الإنسان بحُسبانه كائنًا حضاريًّا مركبًا له قلب وعقل، وحواس ووجدان، وإحساس بذاته وبالآخر، فرد واحد لكنه يكتسب إنسانيته من جماعته وحضارته، يعيش فى المقدس وغير المقدس. وإنما يراه بحُسبانه **كائنًا طبيعيًّا يعيش بمفرده، له حاجات مادية وخاضع لقوانين معروفة مُسبقًا**. لقد أدرك الشعراء الرومانسيون وحشية هذه الرؤية، لذا كانت الحركة الرومانتيكية محاولة لرد الاعتبار لتركيبية الإنسان أمام اختزالية العقلانية المادية الآلية.

*** العقلانية المادية: الاستنارة المظلمة**

هكذا اكتشفت بالتدريج أن العقلانية الغربية يتخفى وراءها نموذج مادى يساوى بين الإنسان والطبيعة المادية، ويعتبر أن مهمة العقل الإنسانى الوحيدة أن يرصد الطبيعة ويعرف مسارها وقوانينها ليطبقها على الإنسان، ومن هنا سميتها «العقلانية المادية» (التى تُسمَّى عادةً **الاستنارة**)، وهى تتباهى بمقدرة العقل (المادى) على **التجريب ولكنه تجريب منفصل عن القيم الإنسانية والأخلاقية، ثم يتلقف نتائج تجريبه دون تساؤل عن المعنى والغاية**.

وأعتقد **أن هيمنة العقل المادى فى الغرب هى المسئولة عن الكره العميق الذى يشعر به الكثيرون تجاه العرب**، وعن عدم فهم قضية حق العودة للفلسطينيين وأهمية القدس. فاللاجئون الفلسطينيون يعيشون فى وضع مادى مزرٍ ومع هذا يرفض غالبيتهم التعويضات السخية التى يمكن أن تُدفع لهم، وهم لا يزالون يتذكرون بيوتهم فى حيفا ويافا ويحتفظون بمفاتيحها، وهم مستمرون فى مقاومة العدو عبر ما يزيد عن مائة عام، ويصرون على أن مدينة القدس هى عاصمة دولتهم. **كل هذا، من منظور العقلانية المادية، يبدو أمرًا متخلفًا لاعقلانيًّا يثير الغيظ والحنق**، إذ كيف يمكن لهؤلاء الفقراء أن يتمسكوا بتراثهم ومقدساتهم برغم كل الإغراءات المادية؟ ما الذى حدث لعقولهم؟!.

الثمرة الثامنة والأربعون...

ليس هناك تميّز فردى إنسانى. وإنما نمطية مذهلة

كنت أتصور، شأنى شأن الكثيرين، أن الحضارة الغربية هى حضارة تُميز كل إنسان عمن سواه، وتحترم تفرده «**حضارة الفردية**»، وأن حضارتنا هى الحضارة الشرقية الجَمعيّة. هكذا تعلمنا، وهكذا أدركنا الحياة.

ولكننى حينما ذهبت إلى هناك، لاحظت أن ثمة «**نمطية مذهلة**» فى أشكال الحياة وفى الأنماط الإنسانية. وقد زادت النمطية بعد ظهور **علوم متخصصة فى التحكم فى السلوك الإنسانى**، تخصصت فى توجيه حياة الإنسان وضبطها وفقًا لخطة محددة (نوم – إفطار – عمل) بحيث أصبح كل شىء مجهز مسبقًا، حتى الإجازات والأفراح بل والمآتم.

وفى حفلات الكوكتيل، كنت ألاحظ حرص العاملين على أن يثبتوا لرؤسائهم أن حياتهم العائلية مستقرة ولن تعيق مسيرة الإنتاج والعمل،

أى أن **الحياة الخاصة تُوظَف فى خدمة الحياة العامة**، ولذا كانت زوجات المرءوسين يحرصن على الحديث مع الرئيس أو زوجته ليبرهِنَّ على أن كل شىء تمام التمام!.

وقد حدث العكس تمامًا حينما عدت من الولايات المتحدة عام 1969، إذ دعوت أنا وزوجتى **عضوات هيئة التدريس فى كلية البنات** وأزواجهن لطعام العشاء فى منزلى، ففوجئت بأنهن جميعًا تقريبًا حضرن مستقلات. وحينما تأملت الواقعة أدركت أن حياتهن الخاصة لها حرمتها وخصوصيتها وفرديتها وأنه لا يجوز بأى حال جرها جرًّا للحياة العامة.

كنت أقابل الكثيرين من الأمريكيين الذين يغيرون ملبسهم ومأكلهم وسلوكهم **حسب ما يمليه الإعلام والكتالوجات**، فأدركت أن ما يسود فى الولايات المتحدة ليس الفردية وإنما البراجماتية. **والإنسان البراجماتى** لا يكترث بالثوابت ولا يهتم بالقيم مثل الكرامة والشهامة، فهو إنسان مرن إلى أقصى حد، وعملى بشكل متطرف، يقبل أى شىء طالما إنه ينجح، ولذا ينتهى به الأمر إلى أن **ذاته الجوانية تضمر**، ويأخذ فى التكيف مع ما حوله ويستجيب بشكل مباشر لما يأتيه من إشارات ونداءات وإعلانات وبيانات سياسية، فيعيد صياغة نفسه بسهولة وسرعة حسب آخر الصيحات.

ويتنافى هذا مع ما تعلمناه من أن الإنسان الغربى إنسان فاوستى مسيطر (يعتز بفرديته إلى أقصى درجة)، يقف وحيدًا فى الكون، عالمه الداخلى من صنعه، وهو يحاول فى الوقت نفسه أن يملى إرادته على العالم الخارجى من حوله. لم أجد شيئًا من هـذا (إلا فى الأعمال الأدبية والسينمائية). لقد أصابت الإنسان الغربى «**عقدة عدم الثقة بالنفس**» فأخذ يستمد صورته لنفسه من الإعلام الذى كان آخذًا فى التوحش والتغول.

الثمرة التاسعة والأربعون...

القلق والتآكل الكامل للأسرة

لا مكان للطمأنينة والاتزان فى قلب الإنسان

كانت معظم المجتمعات الإنسانية فى الماضى تحاول «**إدخال الطمأنينة**» على قلب الإنسان، بحيث يحتفظ بتوازنه مع نفسه ومع الطبيعة. ولعل الأسرة هى أهم المؤسسات التى طورها الإنسان ليُدخل الطمأنينة على قلبه. أما المجتمعات الحديثة (خصوصًا المجتمع الأمريكى) فقد **جعلت الإنتاجية والحركية هدفها**. ويبدو أن الفرد المطمئن المتوازن مع نفسه يقف على طرف النقيض من الفرد المنتج الحركى (فالقلق، يولد نزعة إمبريالية فى الإنسان تجعله يود غزو العالم والهيمنة عليه ليثبت لنفسه تفوقه فيحقق شيئًا من الاتزان والطمأنينة).

إن المجتمع الأمريكى هو **مجتمع القلق**، يتحدث عن الاعتماد على النفس ويقذف بأطفاله فى سوق العمالة فى مرحلة مبكرة للغاية. وفى سن الثامنة عشرة لا بد من أن يترك الفرد أسرته ليعيش بمفرده وليكمل تعليمه. لقد جعل التآكل الكامل للأسرة الفرد يعيش منعزلًا ولا يشعر بأى اطمئنان، بل يُترك وحيدًا أمام آلاف الاختيارات والإعلانات، حتى يلتهمه الإعلام الكفء التهامًا، لا يجد أى مرجعية تكون موضع ثقته ومصدر شرعيته وتضفى معنى على وجوده وتساعده على اتخاذ القرار. لقد **فقد الإنسان «المرفأ فى عالم بلا قلب»** كما يقول عالم الاجتماع الأمريكى كريستوفر لاش فى وصفه لتآكل نظام الأسرة.

قمت بعقد مقارنة بين الأنماط الأمريكية والأنماط المصرية التى عرفتها فى مصر، فوجدت أن **عالم الإنسان المصرى أكثر امتلاءً وأكثر صلابة**، فهو

قادر على الحب وعلى الكره، وعلى التعاون والتآمر، وعلى أن يسترجع ذكرياته وأن يتحمس لوطنه وذاته. وهو لا يصدق كل ما يُقال له بسرعة، بل تجده يستمع إلى الإذاعات الأجنبية ليتحقق من صدق ما سمع فى إذاعة مصر. أما الإنسان الأمريكى، فهو مؤمن تمامًا بكل ما يُقال له، وما يُقال له هو كبسولات إعلامية تزيده تبعية خارجية وهشاشة داخلية.

الثمرة الخمسون ...

اجتماع النقيضين، الذاتية المتطرفة مع الذوبان فى الكل

حينما درست الأدب الأمريكى لاحظت ظاهرة غريبة: أن كلاً من «الذاتية المتطرفة» (شعورى بذاتى ورغبتى فى تحقيقها) و«ذوبان الذات فى الكل» (الطبيعة – الكون – الولايات المتحدة الأمريكية) يتعايشان جنبًا إلى جنب، برغم تناقضهما، وبدأت أُلاحظ أن المجتمع الحديث الذى يزعم أنه يدافع عن الفردية يقوم فى واقع الأمر بهدمها وتذويبها، وباقتحام عالم الإنسان الجوانى.

وأضرب مثلًا بتقاليع موضة الملابس نصف السنوية (شتاءً وصيفًا)، وكيف أن من يقرر أن يرتدى رداء حسب «**آخر موضة**» هو **إنسان متمركز حول ذاته** يود إظهارها وتحقيقها بكل قوة، ولكن المفارقة أنه حين يفعل ذلك يكون قد **تخلى عن فرديته تمامًا!** لأن عليه أن ينفذ أوامر مصمم الأزياء بحذافيرها لأن «**الموضة كده السنة دى**».

ويمكن وصف المجتمعات الغربية المتقدمة بأنها مجتمعات يسود فيها نوع من «**غياب الحرية فى إطار ديمقراطى سلس معقول** smooth unfreedom democratic reasonable» كما يقول المفكر هربرت ماركوز، أى أنها مجتمعات شمولية نجحت فى أن تجعل الجماهير تتبنى الرؤية السائدة فى

المجتمع، وتسلك حسبها دون قمع بوليسى، بحيث يقتنع الإنسان أن الهدف من الحياة هو زيادة الإنتاج والاستهلاك والاستماع.

الثمرة الحادية والخمسون...

النموذج المادى ومستنقع النسبية المطلقة

*** النسبية المعـرفية والأخلاقية**

أصبح الإنسان بلا مرجعية، شخص غير قادر على الحكم

من السمات الأساسية فى الحضارة الغربية الحديثة (بل أهم سلبياتها) «**النسبية المعرفية والأخلاقية**» التى كان من المفروض أن «تحرر الإنسان» «وتفسح له المجال لتأكيد فرديته، لكنها أدت إلى العكس. فالنسبية تنزع القداسة عن العالم (الإنسان والطبيعة) وتجعل كل الأمور متساوية، ومن هنا فالظلم مثل العدل، والثورة ضد الظلم لا تختلف عن الاستسلام له. فيصبح من العسير للغاية، بل من المستحيل، على الإنسان الفرد أن يتخذ أى قرارات بشأن أى شىء، ويصبح من السهل اتخاذ القرارات بالنيابة عنه والهيمنة عليه سياسيًا. **فالنسبية قوضت الإنسان من الداخل وجعلت منه شخصية هشة غير قادرة على اتخاذ أى قرار وإن كانت، فى الوقت ذاته، قادرة على إقناعه بأى شىء، وكل شىء.**

وبدلًا من أن تجعل النسبية من الإنسان شخصية ثورية تفعل ما تريد، جعلته شخصية محافظة رجعية قادرة على التكيف مع الأعم والأغلب، وهذا الأعم والأغلب تحدده صفوة من الشخصيات النيتشوية القوية المسيطرة من الاقتصاديين والسياسيين والإعلاميين، لذلك فإن تآكل المعايير الأخلاقية والاجتماعية السائدة فى المجتمعات يترك الإنسان بلا معيارية (أى بلا مقاييس يحتكم إليها).

ويمكن تشبيه ما يحدث للإنسان الغربى الحديث فى عالم النسبية بما كان يحدث لى حينما أذهب لسوبر ماركت، حجمه فى حجم مدينة دمنهور، لشراء مستلزمات المنزل. فإذا كانت قائمة المشتريات تحوى، مثلًا، نوعًا معينًا من الحبوب Cereal، أفاجأ أنه قد انقسم إلى عدة أنواع: مُحَلَّى بعسل النحل أو مضاف له فيتامين... وهذه مقسمة بدورها إلى صنف عادى، وصنف متميز محبب للأطفال، ولكن هذا الأخير قد ينقسم إلى عدة أقسام: على شكل حروف أبجدية أو على شكل ديناصورات... أمام هذه الاختيارات الكثيرة، كنت أقع فى حيرة شديدة، فأجد نفسى مضطرًا للاستماع لصوت ما داخلى (هو عادةً صوت آخر إعلان سمعته) أو أختار أى شىء بشكل عشوائى أو أهاتف زوجتى لتصدر لى الأوامر وتعفينى من مسئولية الاختيار.

وقد بيَّن الطب النفسى أن **كثرة الاختيارات قد تؤدى إلى مشكلات نفسية**. فحينما يواجَه الإنسان بمثل هذا الموقف، عليه أن يحدد بدقة ما يريد وأن يختار بين سلع الفرق بينها طفيف، وهذا يتطلب جهدًا نفسيًّا كبيرًا، يشكل ضغطًا حقيقيًّا على الإنسان لا قِبَل لكثير من البشر به.

ومن القصص الكوميدية التى تبين مدى تقويض النسبية للإنسان الغربى قصتى مع «ميس إيزو Eizo». كنا نتجاذب أطراف الحديث عن أشكال القهر فى العالم، فقالت الآنسة إيزو إنها تشعر بالاضطهاد لأنها لا يمكن أن تصبح بابا Pope (أى رئيسًا) للكنيسة الكاثوليكية فى الفاتيكان لأنها أنثى، فقلت (مازحًا بطبيعة الحال) أنا الآخر أشعر بنفس الإحساس بالاضطهاد لأننى لا يمكن أن أُعيَّن بابا للكنيسة الكاثوليكية لأننى مسلم. وبدلًا من أن يضحك الحاضرون، التزموا الصمت، وإذا بالآنسة إيزو تُعبِّر عن تعاطفها معى، ولم أدر ماذا أفعل. ولحسن حظى، تركت الآنسة إيزو المكان، فتشجع بقية الحاضرين وتساءلوا: «ألم تزد الآنسة إيزو عن حدها

قليلًا؟» أى أنهم حتى أمام موقف فى غاية الوضوح لا يتحمل أى إبهام، لم تواتهم الشجاعة الكافية ليعبِّروا عن رأيهم.

كنت مرة أجلس أمام التليفزيون البريطانى أشاهد برنامجًا حواريًّا. كان يجلس على المنصة رجل وزوجته وأطفالهما، مع إضافة بسيطة للغاية وهو **عشيق الرجل** (نعم عشيقه لا عشيقته) الذى يعيش معهم تحت سقف نفس المنزل، بموافقة الزوجة والأطفال. وقد واجه الجمهور إشكالية حقيقية، فمن ناحية توجد الموافقة (وهى الشرط الأساسى والوحيد لأى علاقة جنسية فى العالم الغربى)، ومن ناحية أخرى يوجد الشذوذ الذى يسم هذا الوضع، **ولكن لا توجد أرضية غير مادية (دينية أو أخلاقية أو إنسانية) يؤمن بها الجميع ويمكن الاحتكام إليها**. وكلما كان أحد الحاضرين يحتج على شىء، كان الزوج يرد بكل ثقة، بأن زوجته وأولاده موافقون وسعداء، وأى تدخل فى شئونهم سيكون إهدار لحريتهم وحقهم فى الاختيار، وعلى المعترض أن يتحلى بسعة الأفق broad-mindedness (وغنى عن القول أن سعة الأفق هذه تفتح الباب على مصراعيه لتقبل كل شىء أو أى شىء، فمن يُحب أن يوصف بأنه غليظ الطبع ضيق الأفق؟!). ظل النقاش دائرًا دون مَخرج، إلى أن اكتشف أحد الحاضرين أن الأطفال ليسوا فى سن يسمح لهم بالاختيار، وبالتالى فإحضار الأب لعشيقه ليعيش مع أسرته فيه تدمير لحقهم فى الاختيار حين يبلغوا سن الرشد. وتنفس الجمهور الصعداء، إذ وجدوا أرضية فلسفية مشتركة تستند إلى حرية الاختيار، ولكنها فى الوقت نفسه تعطيهم الحق فى الهجوم على الشذوذ، فشنوا هجومهم بشجاعة بالغة، ولزم الرجل وعشيقه الصمت.

ومن القصص الحزينة التى توضح **خطورة التنكر للطبيعة البشرية كأرضية صلبة يمكن الاحتكام إليها** قصة طالبتى التى فوجِئْتُ بأن درجاتها

بدأت تنخفض بسرعة، وعندما سألتها عن السبب قالت إن زوجها يحضر عشيقته معه إلى المنزل، وينامان معًا فى غرفة نومها، فتضطر هى إلى النوم على الأريكة فى الصالة. ولكنها بدلًا من أن تعبِّر عن أى مشاعر إنسانية فطرية (كالغيرة)، أخبرتنى بموضوعية شديدة أن «الأريكة فى الصالة غير مريحة، ولذا فهى لا تستطيع النوم». أخبرتها بأن عليها إذن أن تشترى أريكة جديدة مريحة، فنظرت إلىَّ وقد أدركت أننى عرفت ما لا تريد البوح به.

بل إن القانون الأمريكى نفسه، بتقبله المفاهيم النسبية، يجعل إصدار الأحكام أمرًا فى غاية الصعوبة. أخبرتنى إحدى الزميلات أنها قررت أن تجلس على حِجْر صديقها أثناء قيادته للسيارة. فأوقفهما ضابط الشرطة، الذى تَبَرم من منظرهما، ولكن القانون لا يخول له أن يُجَرِّم مثل هذا الفعل، فأصدر للسائق تذكرة مخالفة مرورية، على اعتبار أن زميلتى كانت تحجب عنه الرؤية!.

*** غياب المفاهيم الإنسانية الفطرية عن السعادة يؤدى إلى البؤس**

لقد أدى الغلو فى النسبية إلى أن يصبح الكثير من المفاهيم الإنسانية الفطرية الأساسية، مثل الإحساس بالسعادة أو البؤس، محل تساؤل بسبب اختفاء المعايير وفقدان المقدرة على الحكم.

نشرت مجلة تايم أخيرًا مقالة بعنوان «صحيح الجسم، وثرى، وغير سعيد»، ورد فيه أن أكثر الأوربيين ثراءً وتقدمًا هم الألمان وهم كذلك أكثرهم بؤسًا وتشاؤمًا، وأن أكثرهم فقرًا الأيرلنديين والبرتغاليين. وهم أكثرهم رضًا. وتضيف المقالة أن **مقاييس التقدم الإنسانى التى اعتمدتها هيئة الأمم المتحدة غير كافية**، فقد اعتبرت الدخل والتعليم ومتوسط العمر هى المقاييس الأساسية. ويقول الكاتب: حسب هذا المعيار، فإن أمة من المصابين بالأمراض النفسية، حصل كل أفرادها على شهادة دكتوراه ومتوسط أعمارهم

90 عامًا، ستحصل على الدرجات النهائية. لأن المرض النفسى ليس جزءًا من المعايير. وانتهت المقالة بأن وصفت الإنسان الغربى بأنه «**خفاش يطير، ولكن بتوتر، ولا يعرف إلى أين**».

وإذا تأملنا نمط حياة الإنسان فى هذه **المجتمعات** «**الثرية البائسة**» وجدنا: بيت يبعد عن محل عمله – علاقات أسرية مفتتة – علاقة واهية بمحيطه الإنسانى – إيقاع حياة رهيب لا يترك مجالًا لأى شىء إنسانى – ساعات عمل قاسية – نسبة طلاق عالية – برامج تليفزيونية باهتة، كل هذا يؤدى إلى الإحساس القاسى بالوحدة. وللاستدلال على **بنية البؤس العميقة التى تخبئها قشرة السعادة السطحية**، تأمل: عدد الساعات التى يقضيها المواطن الأمريكى مع أطفاله وتلك التى يقضيها مع المعالج النفسى الذى أصبح جزءًا روتينيًا من الحياة اليومية فى الولايات المتحدة (35٪ من شباب الدولة التى يُقال عنها متقدمة مصابون بأمراض نفسية). وكذلك الاستخدام المذهل للحبوب المهدئة والمنومة وأدوية الاكتئاب النفسى وانتشار المخدرات. كل هذا من أجل أن يستعيد الإنسان الأمريكى بعض التوازن الذى فقده؛ فلا يمكن تخيل سعادة دون توازن. هذا فى مجتمع جعل تحقيق السعادة الأرضية هدفه الأساسى والوحيد ويُفترض أنه نجح فى تحقيق أهدافه.

ومما يجعل هذا البلاء غائب عن كثيرين، أن كلمات نحتاجها لوصف واقع هذه المجتمعات مثل «ضياع» و «اغتراب» «والطبيعة البشرية» تقع خارج قاموس أنصار النسبية المطلقة، فهى كلمات وثيقة الصلة بعالم الروح والمعنويات!.

*** ازدواج الشخصية، وتبنى أكثر من نموذج.**

هناك شكل من أشكال «**النسبية الأخلاقية**» بدأ يظهر فى الغرب والشرق، وهو أن يتبنى الإنسان أكثر من نموذج. فعلى سبيل المثال يتغنى **المجتمع**

الأمريكى بأغانٍ يدور معظمها حول الحب الرومانسى، ولكن هذا المجتمع نفسه لا يكف عن الحديث عن الصراع من أجل البقاء كقيمة أساسية. **وبالمثل يتنازع الآباء اتجاهان متناقضان فى تنشئة أطفالهم**: هل يحافظون على براءة أطفالهم ورومانسيتهم، أم يعلمونهم فنون الصراع من أجل البقاء فى عالم السوق والتعاقد؟ إن حافظوا على براءتهم أفقدوهم جزءًا كبيرًا من مقدرتهم على الصراع، وإن فعلوا العكس، أفقدوهم جزءًا كبيرًا من براءتهم.

ويحسم بعض الأمريكيين (وكثير من البشر) هذه القضية بتبنى نموذجين: أحدهما للحياة الخاصة والآخر للحياة العامة. لذا يمكن أن تجد أستاذًا للفلسفة يدعو للإباحية فى فلسفته، ولكنه فى حياته الخاصة يتمسك بأهداب الفضيلة التى ليس لها أى أساس فى رؤيته الفلسفية. ومرة كنت أحاور واحدًا من هؤلاء، فقال: أنا أومن بالنسبية المعرفية ومع ذلك لا يمكن القول بأننى منحل أخلاقيًا؟ فأجبته من غيظى قائلًا: «**إذن ستذهب أنت إلى الجنة أما أفكارك فستذهب للجحيم**».

مستنقع النسبية المطلقة أصاب الفنون بالعفن

لقد أثّرت النسبية فى كثير من مجالات الحياة، خصوصًا الفنون. فبدأت فى ستينيات القرن العشرين «**عملية تحرير الفن**» من القيود والحدود الأخلاقية والجمالية، حتى **أصبحت تحررًا من أى قيود أو معايير، كما تزايدت معدلات الإباحية والعنف**.

فى منتصف الستينيات كان الفنان آندى وورهول يُوَقِّع على علب القمامة وعلب الحساء القديمة فتتحول بقدرة قادر إلى **أعمال فنية** تُباع بآلاف الدولارات. وكان له فيلم يُسمَّى «النوم»، يستغرق عرضه ثلاث ساعات، عبارة عن شخص نائم يتحرك كل ربع ساعة أو عشر دقائق! كما رأيت

مسرحية بعنوان «**أخت فيديل كاسترو**»، وكانت مليئة بالإشارات الجنسية الطفولية مع عرض الأعضاء التناسلية، **ولا تهدف إلى نقل أى رسالة، فهدفها الأساسى هو أن تصدم الجمهور**، ولسبب لا أعرفه، كان الذكور يلعبون دور الإناث، وكانت الإناث يلعبن دور الذكور، ويتم كل هذا باسم الإبداع والنسبية والحرية. وما حيرنى كثيرًا هو أن جمهور المتفرجين عبَّر عن إعجابه الشديد بهذه المسرحية، تمامًا مثلما عَبَّر عن إعجابه بفيلم «النوم»!.

ظل هذا التيار يتطور إلى أن عبَّر عن نفسه فى الآونة الأخيرة فى أعمال ثلاثة فنانين دفعوا بالنسبية إلى أقصى مداها، إذ أصبحت تعنى **التحرر من الحدود الإنسانية ذاتها**: أولهم آندريه سيرانو وتعود شهرته إلى «لوحة» بعنوان «فلتتبول على المسيح Piss Christ»، حيث وضع الفنان صورة المسيح على الصليب فى البول. وثانيهم هو روبرت مابلثورب، وهو مصور فوتوغرافى تخصص فى تصوير نفسه فى أوضاع جنسية شاذة تتسم بالعنف. وثالثهم وأشهرهم هو جويل بيتر ويتكين وهو مصور فوتوغرافى يستخدم أجساد الموتى فى أعماله الفنية. ومن موضوعات ويتكين الأثيرة تصوير الموتى بعد أن يرتدوا بعض الملابس، وصورة رجل يضع مسمارًا فى قضيبه (فهذه هى الطريقة الوحيدة التى يتواصل بها مع الآخرين كما يخبرنا الفنان)، وتُباع النسخة من صوره بـ 35 ألف دولار. وحياة ويتكين لا تقل وحشية أو نسبية، فهو يعيش مع زوجته وعشيقتها وينامون فى نفس الفراش، كما يعترف أنه يمارس الجنس أحيانًا مع موضوعاته، أى جثث الموتى!.

ويبلغ انحراف هذا الاتجاه الفنى أقصاه ليصل إلى ما يسمى «سنف موفيز snuff movies» ولا أعرف ترجمة لهذه العبارة، وهى أفلام يختلط فيها العنف والجنس بطريقة متطرفة، وكثيرًا ما تنتهى بقتل بطلة الفيلم وهى فى حالة نشوة جنسية. ومثل هذا المنظر يتكرر فى الأفلام الإباحية «العادية»، ولكن فى

السنف موفيز يتم الذبح بالفعل. وكان يتم الإعلان عن الفيلم بعبارة «صُوِّر فى أمريكا اللاتينية، حيث العمالة رخيصة»، وكل لبيب متوحش بالإشارة يفهم. وقد بينت جريدة وول ستريت جورنال أن ما يحدث هو نتيجة طبيعية للموقف النسبى المتسيب من الفن والجنس ونتيجة إنكار الحدود باسم الحرية المطلقة والإبداع غير المتناهى!.

مستنقع النسبية المطلقة أصاب السياسة بالعفن كذلك

صاحب انتشار النسبية المطلقة ما يُسمَّى بـ«الخطاب السياسى الصحيح» correct politically وهو خطاب متعجرف، **يطالب المرء بألا يقول شيئًا قد يسىء لأحد أعضاء الأقليات**. وكل البشر – حسب تصور هذا الخطاب – أعضاء أقليات: البدينون – طوال القامة – السود – اليهود – المعوقون. كما **يعدد هذا الخطاب الأشياء الصحيحة والمواقف الواجب تبنيها**، ومن ضمنها: الاهتمام بالبيئة – الاهتمام بكل الأقليات – قبول الشذوذ الجنسى بحُسبانه شكلًا طبيعيًّا من أشكال التعبير عن الهُوية. وبعض هذه الأفكار خيِّر ولا شك ولكن البعض الآخر يعبر عن رؤية مغالية فى النسبية.

ويُدعى إلى هذا الخطاب النسبى بطريقة متعصبة إرهابية، وقد انتشر فى **الجامعات الأمريكية**، وأصبح شيئًا مخيفًا يهدد الجميع. فعلى سبيل المثال، قامت أستاذة علم اجتماع فى جامعة كاليفورنيا – بدلًا من أن تعطى الطالبات محاضرات فى مادة تخصصها – بتدريبهن على الاستمناء (حتى يمكنهن الاستغناء تمامًا عن الرجال)، فاحتج أحد أولياء الأمور، فاتُّهم بأنه ضيق الأُفق غير قادر على تقبل الجديد. فاضطر إلى اللجوء إلى القضاء، شاكيًا من أنه يُضّيع ماله بحسبانه من دافعى الضرائب، إذ لا يمكن لصاحبنا أن يشكو إلا على هذا الأساس، فالقانون الأمريكى قد فشل تمامًا فى تحديد موقف محدد من الإباحية أو العيب.

وهناك **الجانب الكوميدى لما يسمى بالخطاب السياسى الصحيح**. فمثلًا يجب ألا يقول الإنسان المتحضر: «رجل الثلج snow-man» بل عليه أن يقول «الشخص الثلجى snow-person» حتى لا تتضمن عبارته تمييزًا للذكور على حساب الإناث!.

الثمرة الثانية والخمسون...

البحث عن اليقين العلمى الموضوعى الكامل حتى فى الأمور الإنسانية

لقد صاحَب النسبية المطلقة شىء مناقض لها تمامًا، وهو الرغبة الصارمة فى أن يصل المرء إلى اليقين العلمى الموضوعى الكامل بخصوص كل شىء، بما فى ذلك الأمور الإنسانية. **فما لا يمكن تعريفه بوضوح والتعبير عنه بدقه يتم تهميشه واستبعاده**؛ كالتعبير عن العواطف والقيم الإنسانية.

وقد **تم ترشيد اللغة الإنجليزية** بحيث أصبحت لغة دقيقة ومنطقية وصلبة للغاية ليس فيها مجال للأسرار أو المناطق الرمادية. أذكر مرة أن جاءتنى إحدى صديقات زوجتى وكانت على وشك الطلاق من زوجها، وعرضت ظروفها بطريقة لا تبين هل هى إنسان يتعذب، أم إنسان يشعر بالسعادة التى تأتى من التحرر من عبء يثقل كاهله، فكان من الصعب علىَّ إعطاؤها النصح والمشورة.

وفى حفل زفاف بالولايات المتحدة، التقيت بفتاة بلغ بها البحث عن اليقين العلمى الموضوعى مبلغًا كبيرًا، ودار بيننا حوار حاولت فيه **أن أبيِّن لها أن التواصل الإنسانى لا يتطلب دقة فى الحديث تحول لغة الحوار الإنسانى إلى معادلات رياضية. فالحوار يستند إلى مجموعة من التعميمات المشتركة التى لا يبوح بها أحد برغم وجودها**، ولكن الفتاة أصرت على أن كل شىء يجب أن يتم تقريره بوضوح. وفى اليوم التالى، استوقفتنى نفس الفتاة فى الطريق

وسألتنى عن الوقت قائلة: «**هل تعرف الوقت؟**» فأجبتها: «**نعم أعرف الوقت**»، وهممت بالانصراف ثم استدرت وقلت ضاحكًا: «إن الدقة البالغة فى التعبير تؤدى إلى مثل هذا الموقف فى الأمور الإنسانية، فقد سألتينى عما إذا كنت أعرف الوقت أم لا، فكانت إجابتى على قدر سؤالك. بل إن إجابة أكثر من هذه تُعَدُ تطفلًا، لذا كان ينبغى عليكِ أن تقولى إن كنت تعرف الوقت، فهل يمكن أن تخبرنى به؟ «وضحكنا ثم افترقنا».

الثمرة الثالثة والخمسون...

البحث عن ميتافيزيقا دون أعباء أخلاقية

ثمة ظاهرة غريبة انتشرت فى الولايات المتحدة؛ وهى زيادة قارئى الطالع والكف (كان آل ريجان لهم قارئة الطالع الخاصة بهم فى البيت الأبيض). كما ظهرت العبادات القديمة الجديدة (مثل عبادة الشمس أو الإيمان بالقدرات الخارقة للهرم وعبادة جايا؛ أى كوكب الأرض) والإيمان بالأطباق الطائرة. ويرجع ذلك إلى أنه رغم تزايد معدلات النسبية وتفشى أخلاقيات السوق **فإن الإنسان يظل بحاجة لإشباع الجانب الإنسانى فيه**. لذلك فلا مفر من الإيمان بما أسميه «**ميتافيزيقا دون أخلاق**»، فهذا يعطيه الشعور الميتافيزيقى الذى يبحث عنه، ولكنه فى الوقت ذاته لا يُحَمِّله أى أعباء أخلاقية، مثل الكسب الحلال وأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك.

الثمرة الرابعة والخمسون...

وهْم الإحساس بالذنب

ثمة مقولة واهمة تعلمناها عن الحضارة الغربية، أنها حضارة «الإحساس (الجوانى والفردى) بالذنب guilt»، أما حضارتنا فهى حضارة الإحساس

(البرانى والجماعى) «بالخجل أو العار shame». **يريدون أن يشعروننا أن الإنسان الغربى ينضبط من داخله، ولذا فهو أكثر تحضرًا**، أما الذى يتم ردعه اجتماعيًّا من الخارج بشكل دائم، فهو إنسان غير متحضر.

ولكن أسطورة إحساس الفرد بالذنب هذه تبخرت بغتة عام 1977 حين انقطع التيار الكهربائى عن نيويورك بضع ساعات، وبدأ الناس يتحركون كالقطيع ويقومون بنهب كل ما تقع عليه أيديهم دون سبب واضح، بل اشتركت بعض السيدات من الطبقات الثرية البيضاء فى كرنفال السرقة. أخبرت أصدقائى الأمريكان ساعتها أننى شاهدت الليلة السابقة تَبَخُّر إحدى الأساطير الحاكمة والمقولات المرجعية فى حياتنا جميعًا، وعلينا ألا نتحدث عن «الضبط الفردى الجوانى» وإنما عن «الضبط العلمى وربما البوليسى الكهربائى».

الثمرة الخامسة والخمسون...

النموذج المادى يفرز الإمبريالية

* حضارة دفعنا تكاليفها

مثل أى مفكر منبهر بالنموذج الحضارى الغربى الحديث، كنت أَفصل الحضارة الغربية والاستنارة الغربية عن بعض الظواهر السلبية المصاحبة لها، مثل الإمبريالية والنازية والصهيونية والعنصرية. ثم بدأت أرى أن هذه الظواهر جزء لصيق ببنية النموذج الحضارى الغربى الحديث.

لقد بدأت أرى **علاقة العقلانية الغربية بالإمبريالية**. تلك الأيديولوجية التى كانت تعوق التحديث فى بلادنا، وتتعاون مع النظم الفاسدة، وتقوم باستغلال خيرات آسيا وإفريقيا ونهب العالم، تساندها فى ذلك القوة العسكرية والمفاهيم العنصرية مثل «مسئولية الرجل الأبيض تجاه العالم الثالث»، وهى أيديولوجية أبعد ما تكون عن العقلانية (كُشف أخيرًا أن

الجنرال مونتجمرى، «بطل» العلمين، وضع مخططًا لاستعباد إفريقيا وأهلها وتحويلها إلى مصدر للمواد الخام).

وفى تطور أخير، أدرَكَت الإمبريالية التقليدية أن تكلفة المواجهة العسكرية مع شعوب العالم الثالث أصبحت باهظة، كما أن الدخول فى حروب عسكرية «عالمية» يؤدى إلى استنزاف طاقة الدول الكبرى الغربية. ثم وَجَدَت الحل فى أن تقذف بالدول النامية إلى حروب صغيرة تحقق من خلالها أرباحًا عالية من ببيع السلاح للطرفين المتنازعين (لا تزال تجارة السلاح أهم تجارة فى عصرنا الحديث، لا تفوقها حتى تجارة المخدرات).

وفى قراءتى لتاريخنا مع الغرب رأيت أنه يأخذ شكل **المواجهة العسكرية** منذ البداية: ثورة الحرية والإخاء والمساواة ترسل لنا بحملة نابليون التى تحمل المدافع – إحباط محاولة محمد على التحديثية حين تكأكأت عليه كل أوروبا بما فى ذلك حليفته فرنسا – جيوش بريطانيا الديمقراطية تغزو مصر وتهزم أحمد عرابى (ممثل الشعب المصرى) لتناصر الخديوى توفيق (ممثل الاستبداد). وتستمر الحلقة دون توقف حتى يومنا هذا، كما حدث فى تجربة جمال عبد الناصر الوحدوية والتنموية.

اقرأ معى كلام المستشار المالى البريطانى الموجه لطلعت حرب حين أخبره برغبته فى إنشاء بنك مصر: «أستطيع أن أمنع قيام هذا البنك، ولكنى سأوافق على إنشائه لأعطيكم درسًا عمليًّا فى الفشل... وكل ما أنصحك به هو أن تشرك معك بعض الأجانب حتى تعطى للمصريين شعورًا بالثقة فى هذا البنك.

*** حضارة حفرت قبرًا يكفى لدفن العالم**

وأقتبس كلمات روچيه جارودى حين يقول:

«**كان نمو الغرب وليد نهب ثروات العالم الثالث** ونقلها إلى أوروبا وإلى أمريكا الشمالية، ومن ثم فإن الغرب هو الذى جعل ما نسميه العالم الثالث

متخلفًا، وقد حدث ذلك خلال مراحل عدة: إبادة هنود أمريكا بدءًا من القرن السادس عشر – نخاسة العبيد السود التى أصبحت ضرورية لتوفير اليد العاملة – «السيطرة الاستعمارية» على إفريقيا وعلى القسم الأكبر من آسيا لتأمين المواد الخام والاستثمارات ذات الريع الأعظم فى الصناعة وفى التجارة، عن طريق فرض السعر الأدنى على اليد العاملة، والأسعار الأعلى للمنتجات المستوردة فرضًا بالقوة...». «ثم تحول استغلال العالم الثالث إلى شكل جديد بنشأة الشركات المتعددة الجنسيات وتوسعها».

وقد أوجز جارودى إنجاز الحضارة الإمبريالية الغربية فى صورة مجازية رائعة حين وصفها بأنها «**حفرت قبرًا يكفى لدفن العالم**».

بالإضافة إلى كل هذا لا بد أن نشير إلى عمليات نهب آثار إفريقيا وآسيا، وأخيرًا متاحف العراق، وكيف تغص متاحف البلاد الغربية وميادينها بآثار هذه الحضارات.

ببساطة شديدة، أدركتُ أن «**التقدم الغربى**» **هو ثمرة نهب العالم الثالث، وأن الحداثة الغربية لا يمكن فصلها عن عملية النهب هذه**، وأن نهضة الغرب تمت على حساب العالم بأسره. لذلك لم أعد أتحدث عن «**التراكم الرأسمالى**» وإنما عن «**التراكم الإمبريالى**».

دائمًا أسأل المستعمرين والصهاينة الذى يتحدثون عن تخلف الشرق ويؤكدون أن هذا التخلف هو أحد مبررات الاستعمار وليس نتيجة له: هل لو تقدم الشرق سيفرح الغرب والصهاينة بذلك، أم أن تقدم الشرق سيصيبهم بالهم والغم؟ ألا يعنى تقدم الشرق انكماش رقعة السوق بالنسبة للغرب، وعمالة غير رخيصة، ومواد خام مرتفعة الثمن، ودولة صهيونية محاصَرَة لا تؤدى أى خدمة للغرب؟.

الثمرة السادسة والخمسون...

النموذج المادى يفرز العنصرية والصهيونية

يلاحظ أى عربى مقيم فى الغرب تعاطفه الكامل مع ضحايا النازية من اليهود، ويصاحبه فى الوقت ذاته إنكار كامل للجرم الصهيونى الغربى ضد الفلسطينيين. كما لاحظت أن الغرب فى موقفه من إسرائيل يتبنى خطابًا عقائديًّا؛ فهو يُظهر تفهمًا عميقًا لرغبة اليهود فى العودة «لأرض أجدادهم «أرض الميعاد (بعد غياب دام بضعة آلاف من السنين)، ولكن الغرب نفسه يأخذ موقفًا واقعيًا عمليًّا من الفلسطينيين ولا يتفهم لِمَ يصرون على العودة، ويعرض عليهم بضعة ملايين من الدولارات للتخلى عن أوطانهم. **فالحق ليس فوق القوة**، بل إن دارون ونيتشه فوق الجميع.

إن العقل الغربى يُعجَب أيما إعجاب بالصهاينة بسبب بطشهم وقوتهم ومقدرتهم على حل كل الأمور بطريقة عملية جراحية باترة مباشرة. كما يرى هذا العقل أن الصهيونية جزء **أصيل وجوهرى داخل التشكيل الحضارى الغربى الحديث**، ولذا فهو يعطيها حقوقًا مطلقة ويطلب منا أن نعترف بإسرائيل، لا بسبب الإبادة النازية، ولا بسبب ما تعرض له اليهود من المظالم، وإنما بسبب موازين القوى التى لا تعرف الله أو الإنسان ولا تعترف بهما، فالمعيار الوحيد هو القوة لا الحق أو العقل.

والعنصرية الغربية ليست موجهة ضد العرب وشعوب العالم الثالث وحدهم، وإنما تمتد لتشمل كثيرًا من **الأقليات فى الولايات المتحدة**، وبخاصة الأمريكيين السود الأفارقة. كان صيف عام 1964 حارًا رطبًا بشكل لا يُطاق ورفضت الحكومة أن ترسل جامعى القمامة والمبيدات الحشرية إلى حى هارلم الذى يقطنه السود، توفيرًا لبضعة آلاف من الدولارات. فحدث الانفجار ونزل الفقراء السود إلى الشوارع يطلبون الحد الأدنى اللازم للحفاظ على

إنسانيتهم، حينئذ شاهدنا فى التليفزيون السيارات وهى تجمع القمامة استجابةً للضغط الشعبى، ثم عمال المبيدات وهم يرشونها، عرفت حينذاك أن نظام القمع الأمريكى أبله وغير عقلانى بالمرة. وقد أخبرنى أصدقائى السود كيف أن الشرطة الأمريكية تسمح لتجار المخدرات ببيع سمومهم فى حرية بالغة داخل أحياء السود حتى تضمن تخديرهم وتحقيق الأمن الاجتماعى!.

أما **العنصرية ضد العرب المقيمين داخل الولايات المتحدة** فقد مرت بمراحل مختلفة. عندما وصلتُ إلى أمريكا عام 1963، لم يكن هناك استخفاف بالعرب، بل يمكن القول إنه **كان هناك خوف منهم**، ففى أوائل الستينيات كان هناك مشروع قومى عربى، وكان هناك رفض لفكرة الأحلاف العسكرية ورفض لإسرائيل ومقاطعة لها، وكانت هناك حركة الحياد الإيجابى، وكان هناك جمال عبد الناصر. ولكن مع هزيمة عام 1967 بدأ **الكُرْه يحل محل الخوف**، وبدأت العنصرية الشرسة تظهر ضد العرب، ففى حضارة دارون ونيتشه لا يوجد مجال للمهزومين. ولذا حينما عدت للولايات المتحدة عام 1975، وبالرغم من انتصار أكتوبر، كان الأمر جد مختلف. بدأت الصورة النمطية للعربى تُظهره زير نساء **وثريًا ينفق أمواله فيما لا يفيد، خبيثًا** لا يمكن الوثوق به، إلى آخر هذه الصفات العنصرية. ثم تبدل الحال تمامًا بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر وسقوط العدو الشيوعى الأحمر، فقد تم استبداله بالعدو الإسلامى الأخضر الذى يتبنى الإرهاب.

الثمرة السابعة والخمسون...

النموذج المادى يفرز الاستهلاكية والإمبريالية النفسية

* هل جربت أن تنتحر وأنت تشعر بالسعادة؟ لعبة المصباح والفراشة

لقد قررت الرأسمالية توسيع رقعة السوق لمنتجاتها، لا عن طريق الانتشار الأفقى فى الخارج بتكلفته العسكرية الباهظة (الغزو الخارجى =

الإمبريالية العسكرية) وإنما عن طريق **الانتشار الرأسى داخل النفس البشرية** ذاتها (الغزو الداخلى = الإمبريالية النفسية)، وذلك بأن تُلقى فى روع الفرد أن ما تعرضه فى السوق من السلع لا يحقق «**منفعته**» وحسب بل و«**سعادته**» **(أى لذته)** أيضًا، فيتوحد الفرد تمامًا بالسلعة ويصبح إنسانًا متسلعًا ذا بعد واحد غارقًا تمامًا فى السلعة والمادة واللذة، **وفى حالة غيبوبة إنسانية كاملة.**

وتتعامل الإمبريالية النفسية مع الإنسان **باعتباره حيوانًا اقتصاديًا جسمانيًا لا يبحث إلا عن منفعته (الاقتصادية) ولذته (الجسدية)**، فلا يهدف فى حياته إلا إلى تحقيق المنفعة واللذة، ويرى أن خلاصه يكمن فى ذلك. وإذا كانت «الحاجة أم الاختراع» فى الماضى، ففى إطار الإمبريالية النفسية يصبح «الاختراع هو أبو الحاجة»، ولا بد أن تظهر سلعة جديدة كل يوم. ومن هنا يدخل الإنسان دائرة الإنتاج الآخذة فى الاتساع إلى ما لا نهاية.

وقد نجحت هذه الإمبريالية فى تجنيد كل الطاقات فى **مختلف وسائل الإعلام** وخاصة **قطاع الأفلام** الذى يُرَوِّج صورة الإنسان الذى يعيش فى اللحظة الآنية، يساعده **قطاع الأزياء** الذى يُغيِّر «أذواق» الإناث والذكور والأطفال كل عام مرتين. ومن أهم القطاعات الأخرى، ولعلها أهمها قاطبة، **قطاع الإعلانات التجارية** التى لا يكف التليفزيون عن بثها.

وكلما نظرت حولك فى الولايات المتحدة، وجدت كلمة «سيل sale» أى «**تخفيض**» أو «**أوكازيون**» تطاردك أينما ذهبت فى المحلات والشوارع والجرائد والمكتبات ومنزلك، تحاول أن تقنعك بأن أمامك فرصة ذهبية لأن «تخرب بيت» صاحب المحل المسكين، المضطر إلى تصفية بضاعته.

حدث لى موقف مع **شركات الطيران**. كنت أرتاح كثيرًا للسفر بالدرجة السياحية إلى أن رأيت إعلانًا لإحدى شركات الطيران يتحدث عن مدى

اتساع كراسى الدرجة الأولى، ويُظهر صورة راكب ممدد على كرسيه الوثير، مقارنةً براكب الدرجة السياحية، الذى يتقلب من الألم فى كرسيه ويلكزه جاره عن غير قصد. منذ تلك اللحظة أصبح السفر بالدرجة السياحية مسألة مؤلمة بالنسبة لى. هذا هو حالى أنا المدرك لما حولى، الواعى به تمام الوعى، فما بالك بالمواطن الأمريكى التلقائى الطيب؟.

*** ليست الشطارة أن تبيع للإنسان ما يحتاجه، بل أن تبيع له ما لا يحتاجه!**

يرسم صديقى **كافين رايلى** صورة واقعية ومثيرة لهذه الهجمة الإمبريالية النفسية على الإنسان الفرد فى كتابه «**الغرب والعالم**»:

«إن قدرة العلاقات العامة والإعلان على التلاعب بالآراء والتأثير فى قرار الإنسان مع التظاهر بتوسيع فرصة الاختيار أمامه هى قدرة هائلة (**أى خداع وأى سرقة**). ولنتأمل هذا المثل: أرادت شركة الدخان الأمريكية زيادة مبيعاتها عن طريق حث النساء على الجهر بالتدخين، فقامت بناءً على مشورة محلل نفسانى بالإعداد لموكب تسير فيه المدخنات فى عيد الفصح فى شوارع نيويورك عام 1929، وأرسلت سكرتيرته تلغرافات لثلاثين من الفتيات من عِلْية القوم فى المدينة، وهذا نصه:

(من أجل المساواة بين الجنسين، قررت مع غيرى من الشابات أن نوقد مشعلًا آخر للحرية، بتدخين السجائر فى أثناء مسيرتنا بالشارع الخامس يوم عيد الفصح).

وقد أثار الحدث ضجة قومية فى أرجاء البلاد واستجابت النساء ودخَّنَّ جهارًا، وأثبتت الشركة أن **العادات القديمة المتأصلة يمكن القضاء عليها عن طريق إصدار نداء مثير، تنشره شبكة من وسائل الإعلام.**

ولما كان المطلوب هو تدخين نوع معين من السجائر، وهو «**لكى سترايك**» ذو الغلاف الأخضر، كان لا بد من إشعال «**الثورة الخضراء**»! فقام مشجع مجهول بإرسال مبلغ 25000 دولار لأهم منظم للحفلات الراقصة فى المجتمع الراقى لينظم **حفلًا أخضر**. وأقام أحد منتجى الحرير مأدبة لمحررى الموضة، كانت قائمة الطعام فيها خضراء وكل **الطعام أخضر**، وقام أحد علماء النفس فحدثهم عن تأثير **اللون الأخضر**. ثم حاضرهم رئيس قسم الفن بكلية هنتر للفنون عن «اللون الأخضر» فى «**أعمال مشاهير الفنانين**».

وبشرت الصحف «**بخريف أخضر**» و«**شتاء أخضر**» ليكون اللون الأخضر هو سيد الألوان. فى الملابس وفى الإكسسوارات وحتى ديكورات المنازل والأثاث. وتم إغراء رئيس حفلة الموضة الخضراء بالسفر إلى **فرنسا** ليضمن تعاون صناعة الموضة الفرنسية والحكومة الفرنسية.

ولما اشتدت الحملة **ركب سائر المنتجين الموجة**، فأعلن أحدهم عن طلاء أظافر جديد أخضر زمردى، وأدخل آخر الجوارب الخضراء. وأخيرًا انضم **المنافسون** إلى الحملة، فعرضت سجائر «**كامل Camel**» فتاة ترتدى زيًا أخضر مقلمًا بالأحمر، وهى نفس ألوان علبة سجائر لكى سترايك. وهكذا اعترف المنافسون ذاتهم بأن لكى سترايك هى قمة الموضة».

إن الإعلانات – كما نعلم كلنا – **كذب فى كذب**، ومع ذلك نتأثر بها ويتحدد سلوكنا من خلالها. ولكن ماذا أفعل لو كنت فقيرًا (وقد مَلَكَت السيارة التى فى الإعلان عقلى وقلبى)؟ لا داعى للقلق فصديقك ذو الابتسامة العريضة فى بنك نيويورك المسئول عن القروض سيساعدك، كل ما عليك أن تفعله هو أن توقع على ورقة بيضاء صغيرة فتحصل على مفتاح السيارة والسعادة. وإن دققت النظر فى هذه الورقة البيضاء الصغيرة

اكتشفت أن عليك أن ترهن منزلك وأولادك وزوجتك وذاتك وعرضك وسيارتك فى مقابل هذا! كما أن سعر الفائدة ليس 4٪ كما تقول اللافتة العريضة؛ لأنه بالحساب المركب يصل إلى أضعاف أضعاف ذلك. فإن انتهيت من طوفان السيارات اكتسحك **طوفان السلع الأخرى**... معجون أسنان، صابون للأطباق، أنواع جذابة من المكرونة والعطور والمياه الغازية والملابس الداخلية والأحذية والشيكولاته والمنشطات الحيوية والمهدئات وأدوات التجميل والتخسيس والأهداب والنهود الصناعية.

كل هذا الركام يمكن أن يزول لو توقف الإنسان للحظة واحدة ليتساءل عن جدوى كل هذا، ولكنه بالطبع لا يفعل لأنه إنسان ناجح، يتعامل مع الواقع (كما أخبره الإعلان)، فالامبريالية النفسية لا تغزو الإنسان من الخارج وحسب، بل تغزوه وتقمع إنسانيته من الداخل.

*** السوبرمان والمرأة اللعوب**

يتمثل الغزو الداخلى للإنسان فى مجالات عديدة، أهمها الجنس. فصورة الإنسان الآن فى الولايات المتحدة **خليط من الإنسان الاقتصادى والجسمانى،** ولذا نجد أن الإعلانات التليفزيونية - سواء فى الولايات المتحدة أو فى مصر - توظف الجنس بلا حياء فى بيع السلع. انظر إلى هذا الإعلان: تسير السيارة ثم تخرج منها فتاة نصف عارية رائعة الحسن وتطلب منك ألا تتردد فى شرائها: السيارة/ الفتاة، وقد أصبحت إعلانات بنتون وكالفين كلاين من أهم الرموز الجنسية فى المجتمع الأمريكى. ولو وجد أصحاب هذه الإعلانات أن بعض أسفار الإنجيل قد تساعدهم بشكل أكبر على البيع لما ترددوا فى التخلى عن توظيف الجنس ولوظفوا الإنجيل بدلًا من ذلك.

وقد نجم عن هذا **انتشار الإباحية**، وهى إباحية علمية من نوع جديد، تعتبر أن الجنس طاقة محايدة يمكن استخدامها فى التحكم فى الإنسان. انظر مثلًا إلى كريم الشعر هذا، إن سحره لا يقاوم، إن استخدمته وقعت كل الفاتنات فى شباكك. وأنت يا سيدتى إذا شربت هذا الدواء، فإنكِ ستتمتعين بجاذبية جنسية بعد شربه. وأنت أيها العجوز الكركوب لم لا ترتدى باروكة أو تصبغ شعرك أو تفرد جلدك أو تقصر بنطلونك أو تطوله، اختر ما تشاء من السلع وكله فى سبيل الحيوية والبعث الجنسى، ولكنه بعث جنسى لا علاقة له بالحياة أو الحب أو الزواج أو الطلاق أو حتى إبليس، فهو **بعث جنسى يدور فى فراغ لا نهائى هدفه الاستهلاك**.

*** حضارة السهل: بلاش عقد Take it easy**

إن الإمبريالية النفسية هى حضارة السهل، بدلًا من المركب والجميل. وتحت شعار «فلتكن بسيطًا» أو «لتكن طبيعيًّا» (يقابلها فى حضارتنا الآن حضارة «بلاش عُقد») يتم إنتاج مجموعة من السلع البسيطة (مثل الهامبورجر والديسكو والبنطلون الچينز). وقد أُطلق على هذا النمط الإنتاجى/ الاستهلاكى البسيط الذى أفرزته الإمبريالية النفسية اصطلاح «**ضد الحضارة** anti-culture»، فهو يهدد كل الأشكال الحضارية وكل الخصوصيات، بما فى ذلك الحضارة والخصوصية الأمريكية التى أنتجته (فالحضارة الأمريكية تعرف تقاليد حضارية محلية ثرية مختلفة تبعًا لاختلاف الهجرات: حضارة الكريول فى لويزيانا – حضارة الساحل الشرقى – حضارة الوسط الغربى الأمريكى... إلخ). إن هذه السلع النمطية **تحول الإنسان الفرد إلى كائن نمطى بلا أبعاد** وتفقده خصوصيته وتراثه، بحيث يمكن توجيهه بسهولة كما يمكن التنبؤ بسلوكه واحتياجاته، ولذا فهى حضارة معادية للحضارة وللإنسان.

الثمرة الثامنة والخمسون...

النموذج المادى يفرز الديمقراطية ثم يفسدها...

*** الديمقراطية كما ينبغى أن تكون**

إن الديمقراطية نظام سياسى يوفر فرصة المشاركة لكل أعضاء المجتمع الذين لهم حق التصويت فى اتخاذ القرارات التى تؤثر فى حياتهم الفردية والجماعية على السواء. وتستمد الحكومة شرعيتها من إرادة غالبية أعضاء المجتمع.

ومن الشروط التى ينبغى توافرها فى الديمقراطية الحقيقية؛ الانتخابات الحرة وسرية التصويت. وتقوم الديمقراطية على المنافسة الحرة بين المرشحين، وعلى توازن المصالح بين الجماعات المتعارضة. وتكفل الديمقراطية المساواة أمام القانون، وحرية الكلمة والتعبير والنشر والاجتماع.

*** عوائق التطبيق الديمقراطى السليم:**

نبهتنى تجربتى إلى أن نموذج الديمقراطية الذى يُطبق بالفعل فى الولايات المتحدة يختلف بشكل جوهرى عن المثل الأعلى المطروح، وذلك للمعوقات الآتية:

1- **مواطن طيب ساذج**: ينتخب المواطن الأمريكى أعضاء الكونجرس ومجلس الشيوخ ورئيس الجمهورية التى تريد أن تحكم العالم، ولكن هذا المواطن الطيب الساذج لا يعرف شيئًا عن علاقة الاقتصاد بالسياسة وعن آليات الاستغلال الاقتصادى. **فالحزبان الرئيسيان** (الديمقراطى والجمهورى) لا يقدمان له برامج توعيه سياسية أو اقتصادية، ويكتفيان بتقديم برامج متناثرة لا يربط أجزاءها رابط، حتى تُرضى معظم الأذواق، وتركز على تطلعات المواطن الأمريكى

المادية والاقتصادية والجسمانية. ويتولى **الأعلام** الترفيه عنه وتفريغه من الداخل، **وحصره فى عالم الحواس والسلع والمادة والأشياء**.

2- **مواطن يجهل التاريخ والجغرافيا**: عندما كانت تُجرى لى عملية زرع النخاع فى الولايات المتحدة، حدثت المواجهة النووية الخطيرة بين **الهند وباكستان**، فسألت كبيرة الممرضات (وهى فى منزلة الطبيب وتتلقى تعليمًا جامعيًّا متميزًا) عن رأيها فى هذه المواجهة؛ ففوجئت بأنها لا تعرف شيئًا عنها، وبررت ذلك بقولها إن الهند وباكستان بعيدتان عن الولايات المتحدة!.

كما أخبرنى أحد الصحفيين الذين ذهبوا إلى **العراق** أن الجنود الأمريكيين لا يعرفون أين هم، ويسألون أين القاهرة؟! وبعضهم كان يتعجب من عدم وجود محلات ماكدونالدز ولا بنات (فتيات) يمكنهم اصطحابهن. **وكثير من أعضاء الكونجرس يخلطون بين العراق وإيران** Iran وIraq بسبب تقارب الهجاء والنطق بين الكلمتين بالإنجليزية، وبسبب جهلهم الشديد بالجغرافيا والتاريخ.

3- **مواطن يصدق الأكاذيب**: فى حرب العراق دفعت حكومات بريطانيا وأسبانيا والولايات المتحدة بقواتها إلى هناك للبحث عن **أسلحة الدمار الشامل** استنادًا إلى معلومات مختلقة أقنعت بها مواطنيها، ظهر بعد ذلك كذبها.

4- **ديمقراطية الأثرياء**: تتكلف المعركة الانتخابية فى الدول الغربية مئات الملايين من الدولارات. ولذا فالمرشح الثرى يمكنه أن يقوم بحملة انتخابية مستمرة وفعالة، أما المرشح الذى لا يدبر مثل هذه الاعتمادات فمصيره التهميش الإعلامى. لذلك فإن أصحاب المصالح وكبار الرأسماليين وجماعات الضغط يمكنهم أن يؤثروا فى نتائج الانتخابات لا بسبب برامجهم السياسية وإنما **بسبب ثرواتهم**.

5- **ديمقراطية عد الأصابع** (ديمقراطية لا تحكمها قيم):

لعل من أهم العوائق التى تواجهها الديمقراطية فى التطبيق هى مشكلة **المرجعية النهائية**، فقد وجدت أن 51٪ من الأصوات هو الذى يقرر القانون والحقيقة والقيمة، أى أن عدد الأصابع المرفوعة هو المرجعية النهائية، فهى **ديمقراطية بلا مرجعية فلسفية أو أخلاقية أو معرفية، ويمكن تسميتها «الديمقراطية المنفصلة عن القيمة** value-free democracy. «(تمامًا كما يتحدثون عن العلم المنفصل عن القيمة، وحرية التعبير المطلقة المنفصلة عن القيمة، فكل الأمور نسبية، أليس كذلك؟!).

لقد وصل هتلر إلى الحكم من خلال القنوات الشرعية الديمقراطية، بعد أن حاز على رضا وإعجاب وحماس الشعب الألمانى الذى وافق على تصفية الأقليات العرقية والدينية غير المرغوب فيها (مثل الغجر، والمعوقين، واليهود) باعتبارها عناصر بشرية تستهلك ولا تُنتج. كما وافقت الشعوب الغربية بحماس بالغ على **إرسال جيوشها إلى آسيا وأفريقيا**، فأبادت وسَخَّرت ونهبت. تمامًا كما توافق الأغلبية الساحقة من أعضاء التجمع الصهيونى على عمليات البطش والذبح، التى تقوم بها القوات الإسرائيلية. وتشبه ديمقراطية عد الأصابع **عصابات المافيا**، حيث يتم كل شىء من خلال إجراءات ديمقراطية دقيقة لا غبار عليها، ولكن مرجعيتها النهائية هى الحق الذى تعطيه هذه العصابة لنفسها فى سلب الآخرين حقوقهم وتقويض إنسانيتهم.

وفى إطار الديمقراطية المنفصلة عن القيمة، رشحت إحدى نجوم البورنو (الأفلام الإباحية) نفسها لعضوية البرلمان الإيطالى. وكان برنامجها الانتخابى يتلخص فى خلع ملابسها قطعة قطعة أمام السادة الناخبين. ويبدو أن هذا البرنامج الانتخابى له فعالية فائقة فى بلد يتمتع سكانه بدفء المشاعر مثل إيطاليا، إذ نجحت السيدة الفاضلة نجمة البورنو فى الانتخابات!.

*** نحو ديمقراطية حقيقية:**

من أجل تحقيق ديمقراطية حقيقية وتلافى السلبيات التى تهمشها، يجب:

1- أن نعيد تعريف الديمقراطية، وبدلًا من القول بأن الديمقراطية هى صوت واحد لكل مواطن «one man, one vote»، يجب أن نُعَرِّفها بأنها **نظام سياسى يعطى صوتًا واحدًا لكل مواطن شريطة توفير المعلومات الكاملة له.**

2- أن **تدار المعركة الانتخابية بطريقة ديمقراطية حقيقية**، بحيث تُتاح مساحة زمنية متساوية فى وسائل الإعلام لكل من المرشحين. ويجب أن يوضع سقفًا عامًا حقيقيًّا لما يمكن للمرشح الواحد أن ينفقه، سواء فى شراء الإعلانات فى التليفزيون أو استئجار مستشارين لإدارة حملته الانتخابية.

3- زيادة فاعلية وقوة **مؤسسات المجتمع المدنى** والنقابات وكل المؤسسات والتنظيمات غير الحكومية (التى تخشاها الدولة المركزية)، والتى تعبر عن مصالح وطموحات الجماعات المختلفة فى الوطن الواحد.

4- التأكيد على أن **الديمقراطية ليست رأى الأغلبية وحسب**، إذ يجب أن يكون هناك ضوابط لحفظ الحقوق المدنية والدينية والثقافية **لأعضاء الجماعات** العرقية والدينية المختلفة.

5- اتخاذ الخطوات اللازمة حتى لا تتحول **المؤسسة العسكرية** إلى جماعة ضغط خفية تتحكم فى سياسات الدولة بل وفى كل شىء.

6- وضع الضوابط الكفيلة **بكبح جماح الرأسمالية المتوحشة** والشركات الضخمة لتحقيق المصالح الاجتماعية الإنسانية لكل أعضاء المجتمع.

obeikandl.com

7- والأهم من هذا كله، أن نؤكد على أن **مرجعية النظم الديمقراطية يجب أن تكون القيم الإنسانية العامة** غير الخاضعة للتصويت وعد الأصابع، والمتمثلة فى الإعلان الدولى لحقوق الإنسان، وفى ميثاق هيئة الأمم المتحدة، والمواثيق الدولية المختلفة مثل اتفاقية جنيف. كما يجب عدم التدخل فى شئون الدول الأخرى إلا من خلال **قرارات من الجمعية العامة** لهيئة الأمم المتحدة (وليس مجلس الأمن الذى تسيطر عليه الولايات المتحدة بحق الفيتو).

إن الانتقادات السابقة والمقترحات المطروحة لا تعنى رفض الديمقراطية، فهناك من المفاهيم الهامة ما رسخته بالفعل، ولا بد من الاستفادة منها ومحاولة تطبيقها، مثل تعدد الأحزاب والفصل بين السلطات الثلاثة (التشريعية والتنفيذية والقضائية) ومساءلة السلطة التنفيذية على يد السلطة التشريعية.

الثمرة التاسعة والخمسون...

النموذج المادى يفرز السُعار الجنسى...

*** خدعــونا**

كانت **إحدى الصور التقليدية الشائعة** فى عقولنا أن الجنس طاقة مادية، إن فُرِّغت يصبح الفرد عاديًا وطبيعيًّا وسويًّا، أما إن كُبتت فإنها تصبح قوة مدمرة. لذا كان من المفهوم أن ينشغل الشرقيون بالجنس، فهم مكبوتون قُمعت رغباتهم الجنسية فى طفولتهم ومراهقتهم، مما أدَّى إلى تشوههم النفسى الكامل، وتحولوا إلى مراهقين أزليين. كما تعلمنا أيضًا أن الأمور مختلفة تمامًا فى الغرب، فهم يتصرفون بشكل طبيعى ويُصَرِّفون الطاقة الجنسية بلا قمع ولا كبت.

ولكن حينما وصلت إلى الولايات المتحدة وجدت أن التصور البسيط الذى آمنت به لا يُفسِّر الأمور، إذ لاحظت **إقبال الأمريكيين النهم وانشغالهم المتطرف (وأحيانًا المَرَضى) بالجنس**، إلى درجة انتشار حوادث الاغتصاب بالرغم من أن مجال الإشباع الجنسى متاح أمامهم بشكل ديمقراطى مذهل (وهو ماسميته فيما بعد «**ديمقراطية اللذة**»). الأمر الذى كان يحيرنى كثيرًا فى بادئ الأمر.

وتساءلت: كيف يمكن أن ننظر إلى هذا الهوس الجنسى بحُسبانه تعبيرًا طبيعيًّا عن رغبة جنسية طبيعية؟ بل إن بعض الناس منهم يُمارس رغباته الجنسية كإنسان **مدمن، لا للخمر وإنما للجنس sexaholic** على وزن alcoholic فيمارسه بشراهة ولكن دون متعة حقيقية، ومن المعروف أن بعض مدمنى الجنس يودون التوقف ولكنهم لا يملكون من أمرهم شيئًا، شأنهم فى هذا شأن مدمن الخمر الذى يمقت ما يتعاطاه ولا يملك منه فكاكًا.

*** ليتهم اعتبرونا حيوانات**

ولتفسير هذا التناقض بدأت أتأمل وأتساءل: لعل الارتواء الجنسى عند الإنسان مرتبط بعناصر مادية وأيضًا غير مادية (بخلاف الحيوان)، ولعل **هذه العناصر غير المادية ليست مجرد قشرة وإنما من صميم الإشباع الجنسى عند الإنسان**. ولعل الجوع الذى أشاهده فى الولايات المتحدة والذى ليس له أى تفسير مباشر يعود إلى «رؤيتهم» المادية، فهم **ينظرون للجنس كما لو كان شيئًا طبيعيًّا ماديًّا**؛ مسألة غدد وعضلات وحسب، لا تختلف عن أى عملية بيولوجية أخرى مثل تناول الطعام.

ولعل هذه **المحاولة لتطبيع الجنس** تفسر **رغبتهم العارمة فى ممارسته فى العلن**، بلا أى إحساس بالحرج أو الخصوصية أو الفردية، ورغبتهم فى أن

يصبح الجنس جزءًا من الحياة العامة، وقد يُفسِّر هذا إصرار الشذاذ جنسيًّا على علنية ممارساتهم وضرورة تطبيعها وتقنينها. وقد تُفسِّر هذه العلنية المرض الغريب الذى يسَّمى «**الخوف من الحميمية** intimacy of fear»، فحينما يعتاد البعض ممارسة الجنس فى إطار غير رومانسى وعلنى (كأن يضاجع رفيقته على عجل فى فندق بجوار محل عمله فى أثناء الساعة المخصصة للغداء أو فى المقعد الخلفى للسيارة أو فى حديقة) تصبح هذه الظروف شرطًا لأدائه الجنسى، ويفاجأ هذا الشخص بأنه غير قادر على الأداء داخل المنزل مع زوجته تحت ظروف رومانسية مريحة لأنه لا يستجيب جنسيًّا إلا تحت ظروف تدعو للسرعة والتوتر وفى رقعة الحياة العامة!.

إن الصورة «**المثالية**» التى تُعبر عن نظرة الغرب للجنس هى صورة چيمس بوند حين يحضر ليقبض على إحدى الجميلات، فيكتشف أنه وصل قبل موعده فيقرر أن يضاجعها لتزجية وقت الفراغ، وفى أثناء ذلك ينظر إلى ساعته ويكتشف أن الوقت قد حان، فيأخذ الكلبشات من جيبه ويضعها على يديها ويرحل بها. إن الأفلام ووسائل الإعلام الأمريكية تصور الإنسان كما لو كان إنسانًا جسمانيًّا، يعيش فى جسده (المادى) وحسب، تمامًا مثلما يصوره دعاة السوق الحرة إنسانًا اقتصاديًا تحركه الدوافع الاقتصادية (المادية) وحسب.

*** الجنس كما نفهمه وكما يفهمونه**

لم يدرك كثير من الأمريكيين أن **الجنس مسألة إنسانية مركبة، خاصة وأنها مرتبطة برؤية الإنسان للكون وهويته الفردية**. وعدم إدراكهم لهذه الحقيقة البسيطة العميقة، هو أحد أسباب عدم الارتواء الجنسى، فهم يمارسون الجنس فى إطار مادى نتيجة لتبسيط الإنسان واختزال دوافعه، ويترك ذلك كيانهم الإنسانى بلا إشباع. أو لعلهم أدركوا إنسانية الجنس على المستوى

الفردى، لكن مؤسسات الإعلام التى تبحث عن الربح تشيع صورة الجنس السهل المباشر، الذى لا تسبقه مقدمات، ولا توجد بعده أى توابع: أطفال وعلاقات اجتماعية وتغير فى الرؤية.

لا شك أن هناك علاقة بين إنسانية الإنسان وبين تصاعد رغبته الجنسية. **فكلما ضَمُر شعوره بإنسانيته، ازداد السُعار الجنسى** كمحاولة لتعويض الإنسان عن اختفاء عالم الأحلام، إذ إن **عالم الجنس هو البديل المادى والمباشر للمدينة الفاضلة**. وكلما ازداد العالم نسبية وتوارى المطلق، ازداد السُعار الجنسى أيضًا، إذ إن الجنس يزود الإنسان بمركز ومطلق مؤقتين فى عالمه النسبى الذى لا مركز له ولا مطلقات فيه. إنه **ميتافيزيقا من لا ميتافيزيقا له**، أو ميتافيزيقا من لا يود أن يحمل أى أعباء إنسانية أو أخلاقية.

وقد وجدت أيضًا أن عدم إحساس الأمريكى بالطمأنينة يجعله **يحاول دائمًا أن يصل إلى بعض اليقين، ويحاول أن يأتنس بالغير كى يتغلب على اغترابه وأن يحقق ذاته**. ولكنه فى الوقت نفسه يخاف من الارتباط الدائم بالآخر، ففيه نوع من الثبات وهذا أخشى ما يخشاه، لذلك وجد ضالته فى الجنس العابر، فمن خلاله يمكنه أن يصل إلى اليقين والائتناس المؤقتين (فالعلاقة الجنسية علاقة أكيدة يمكنه أن يدركها بحواسه الخمس فتُدخل شيئًا من الطمأنينة إلى قلبه) ولكنها لا تضطره فى الوقت نفسه للارتباط بالآخر.

*** الجنس بين التدوير والتبديد**

ويرتبط الجنس فى الولايات المتحدة بالسُعار الاستهلاكى. فالأمريكى الذى يعيش فى حضارة الفوارغ disposables وحضارة التغليف packaging لا يعرف فكرة التدوير Recycling. لذلك فهو **لا يعرف كيفية الحفاظ على**

العلاقات الإنسانية بدلًا من تبديدها، ولا يعرف كيفية استثمار طاقته الجنسية بطريقة رشيدة من منظور إنسانى. ولذا نجد الأمريكى غير راض عما فى يده، دائم البحث عن الجديد وعن آخر التقاليع، يغيِّر مسكنه وجيرانه وأصدقاءه مرة كل خمسة أعوام، ويستمع كل شهر (وربما كل أسبوع) إلى أغنية جديدة، ويحاول أن يُغيِّر سيارته كلما سنحت له الفرصة، وهو يُغيِّر رفيقته مثلما يغيِّر كل شىء آخر (وهى أيضًا تفعل الشىء نفسه) حتى يبدأ من جديد. ولعل انتماء الأمريكى إلى مجتمع استيطانى يعمق من هذا الاتجاه، فالمجتمعات الاستيطانية تنكر التاريخ، وكما بدأ المجتمع من نقطة الصفر اللا تاريخية، يحاول الفرد أن يفعل الشىء نفسه.

*** وداعًا للأسرة**

كل هذا يفصل الجنس عن مضمونه الاجتماعى والإنسانى المركب ليصبح ترجمة عملية لمبدأ السعادة واللذة. إن هذا الإنسان ينعزل عن تراثه وماضيه، بل وعن وجوده الإنسانى المركب، فيعيش فى الجسد يبحث عن المتعة المباشرة التى لا علاقة لها بالخير أو بالشر. وبالنسبة لمثل هذا الإنسان **المتمركز حول لذته تصبح الأسرة أمرًا غير مهم** بل تصبح عبئًا. فكلما فتحت التليفزيون الأمريكى تجد امرأة نصف عارية تبيع لك شيئًا ما. وهذا يُصَعِّد من توقعات الرجل الأمريكى بالنسبة للجنس، فيطلب إلى زوجته أن تكون إحدى ملكات الإغراء (ويحاول هو جاهدًا أن يصبح أحد ملوك الإغراء) مما يصيبه بالإحباط وعدم الاطمئنان هو وزوجته، وتساهم شركات التجميل فى تصعيد هذا الجانب، فتزيد من توقعات الذكور الجنسية مما يضطر الإناث لاستهلاك المزيد من مستحضرات التجميل.

هذا إلى جانب أن الباحث عن اللذة هو إنسان **فرد مكتفٍ بذاته**، لا

obeikandl.com

يطيق أى حدود أو قيود أو مسئولية، فهو يود تحقيق رغباته فى التو (الآن وهنا)، خاصةً وأن هذا الفرد يعيش فى مجتمع نفعى مادى، لا يعرف المثاليات التى تساعده على تجاوز ذاته الضيقة. وفى تصورى أنه **لا يمكن إرجاء إشباع الرغبات إلا من خلال الإيمان بمَثَل أعلى يتجاوز حدود الفرد وحيزه** (كالوعد بالجنة أو الدفاع عن الوطن).

إن مثل هذا الفرد المكتفى بذاته **لا يمكنه أن يقبل مؤسسة الأسرة**، فهى تُلقى على كاهله (كأب وكأم) مسئوليات اجتماعية شتى، ولذا تضمُر مؤسسة الأسرة تمامًا. ولهذا يزداد العزوف عن الإنجاب والزواج مع ازدياد الإحساس بأن الأسرة عبء لا يُطاق وأن مسئولية تنشئة الأطفال تفوق طاقة البشر.

*** الشذوذ: الطامة الكبرى:**

لعل هذا البحث عن اللذة الجنسية الخالصة هو الذى يفسر انتشار الشذوذ الجنسى فى المجتمعات الرأسمالية الغربية. تبعًا لإحصاء عام 1972 يوجد فى الولايات المتحدة ما يزيد على أربعة ملايين من الشواذ، وتوجد لهم بعض **الكنائس** التى يديرها وعاظ شاذون جنسيًّا مثل كنيسة لوس أنجلوس، كما أنشئ معبد يهودى ومدرسة تلمودية لتخريج الشواذ.

وأعتقد أن **الشذوذ هو النتيجة المنطقية لمبدأ اللذة النفعى**، فالإنسان الشاذ يمكنه أن ينشئ علاقة مع شخص آخر من جنسه ليتغلب على اغترابه بشكل مؤقت دون أن يدخل فى علاقات ذات آثار اجتماعية تضطره للدخول فى علاقة حقيقية مع الآخرين (كالزواج).

وحينما كنت فى نيويورك لاحظت أن **الشاذات من النساء** أصبح لهن

وجود وظهور ملحوظ، وهذا «التطور» أو «التقدم» يعود لحركة تحرير المرأة (التى أسميها **حركة التمركز حول الأنثى**) التى ينادى بعض زعمائها بأن المرأة الشاذة جنسيًا والتى استغنت كلية عن الرجال هى أكثر النساء تحررًا، وهى المرأة التى حققت المساواة البيولوجية الكاملة مع الرجال، وحققت بذلك الاكتفاء الذاتى!.

ويبدو أن مع الإغراق فى المادية أصبح الفرد غير قادر على الاستجابة التلقائية للدوافع الغريزية العادية، ولذا فهو يحتاج إلى مؤثرات عنيفة وأحيانًا شاذة حتى يمكنه الاستجابة. وقد يفسر هذا تصاعد معدلات العنف فى الحياة وفى الأفلام، كما يفسر أيضًا ارتباط الجنس بالعنف.

*** الثورة الجنسية والتحرر الجنسى:**

حاولت **حركة الهيبى** أن تجعل الثورة على المجتمع وعلى إنسانيته ثورة جنسية، وذلك بأن تجعل التحرر الحقيقى تحررًا جنسيًا كاملًا. ولكن المفارقة الكبرى هى أن تَحَقُّق هذه الرؤية يعنى أن الإنسان يصبح مسلوب الإرادة لا حول له ولا قوة، يسير حسبما توجهه غرائزه.

وتعد مسرحية «**هير Hair**» (أى شَعْر) الغنائية، التى شاهدتها فى نيويورك فى منتصف الستينيات، علامة أساسية فى تاريخ الثورة الجنسية، فهى تحتفى بانتصار إله الجنس وهيمنته الكاملة على الإنسان، إذ يصبح هو المحرك الأساسى للفرد فيفقد حريته ومقدرته على الاختيار.

ويُعتبر **مايكل جاكسون** (الذى لا هو بالذكر ولا هو بالأنثى) ممثل النسبية الكاملة، وعدم الانتماء لأى شىء؛ التجسيد الحق للتفكيكية (رد الإنسان لماديته).

يمكننا ما سبق من أن نفهم الحديث المتكرر والممل عن الجندر gender، أى النوع، (وليس الجنس «sex») بحُسبان أن الفروق الجسدية والتشريحية بين الرجال والنساء ليست أساسية، وأن **دور كل منهما (كذكر أو أنثى) ليس مسألة مرتبطة من قريب أو بعيد بالخصائص الجسدية**، وإنما هى مسألة اختيار شخصى. فأنت تستطيع أن تتصرف فى المجتمع كذكر أو كأنثى تبعًا لاختيارك، بغض النظر عن جنسك، وهذه مفارقة تستحق التسجيل: **فى الحضارة التى يصل فيها الاهتمام بالجنس والتركيز على الأعضاء التناسلية حد الهوس، ثمة محاولة إلى تحييده تمامًا و «إلغائه»**.

ولعل تحرر الجنس من الإطار الاجتماعى وتحييده وتطبيعه يتضح فى ظهور «**أشكال بديلة من الأسرة**» (حاول مؤتمر السكان فى القاهرة إسباغ الشرعية عليها) مثل أسرة تتكون من رجلين أو امرأتين ويحق لهما الآن تبنى الأطفال، بل «إنجابهما» عن طريق عمليات التلقيح الصناعى. ولعل هذه التطورات تؤدى ببعض المنادين بمثل هذه الحرية إلى التريث قليلًا فى دعوتهم إلى الحرية، بل عليهم أن ينظروا إلى التطورات اللاحقة التى بدأت تظهر فى مجتمعاتنا بالفعل (انظر إلى التليفزيون المصرى وإعلاناته الراقصة التى لا تنتهى، وتوظيف الجنس فى بيع كل شىء ابتداءً من كريمات الجلد وانتهاءً بالمبيدات الحشرية. وانظر إلى الفيديو كليبس ومحطاتها المليون التى تعمل 48 ساعة كل يوم **حتى يترسخ فى أذهان الجميع أن الجسد هو المرجعية النهائية وهو الذى يسبغ معنى على حياتنا!**).

ويرى البعض أن «**الإباحية**» قضية فكرية إبداعية، وبالتالى لا يمكن إخضاعها لأى رقابة، ويمكن قبول هذا المنطق لو توافر فى كاتب الأدب الإباحى وكذلك مخرجه السينمائى شرطان: ألا يحقق ربحًا ماليّا من أدبه،

وأن يثبت لنا هذا الكاتب أنه يمارس فى حياته الخاصة فعليا ما يدعو إليه نظريًّا، لنتأكد من إيمانه بما يقول. ولا أعرف أديبًا إباحيًّا واحدًا يتوافر فيه هذان الشرطان. بل أننى قرأت عن منتجة أمريكية تخصصت فى إنتاج المسلسلات التليفزيونية التى تتميز بوجود شخصيات مساحقة فيها، وهذه السيدة لا تؤمن شخصيًّا بالشذوذ ولا تمارسه فى حياتها، ولكنها وجدت هذا طريقًا سهلًا للربح!.

ويمكن **تلخيص الثورة الجنسية** بأن الرغبات الجنسية قد انفلتت من عقالها، وبدلًا من أن تحرر الإنسان حيدته ثم استعبدته. **فانتشرت الإباحية وتم «تطبيعها»** بشكل لم يعرفه المجتمع الأمريكى من قبل. فكأن الهدف من الإباحية لم يكن إرضاء الشهوات وإنما اختزال الإنسان إلى جسد، **فالتعرية تبدأ بالجسد وتنتهى بتعرية الإنسان من تركيبته وإنسانيته**. لكل هذا يُنظر للجنس بطريقة محايدة للغاية وكأنه نشاط بيولوجى منفصل عن القيمة، لذلك يُشار الآن إلى البغاء بحُسبانه نشاطًا اقتصاديًّا محايدًا، مجرد عمل عضلى لا يختلف عن غيره من الأعمال، ولذا تُسمَّى البغى الآن فى بعض الأوساط «عاملة جنس sex worker».

كنت أحاول أن أشرح هذه القضية لبعض الفقهاء ممن كانوا يتحدثون عن «الزنا» فى الغرب، وكأن الغرب لا يزال يدور داخل إطار الحلال والحرام. فكنت أقول لهم: فى مجتمعاتنا إن اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما. المشكلة فى الغرب أن الشيطان لا يحضر ما لأن **المسألة أصبحت طبيعية ومحايدة بدون أى إحساس بالذنب إلى درجة أنها أصبحت قضية إجرائية محضة: أين؟ متى؟ إلخ**. وكنت أخبرهم أننى أرحب بحضور الشيطان فهو على الأقل يذكرنا بالله، تمامًا كما يذكرنا الشر بالخير، والحرام بالحلال.

الثمرة الستون...

مثقفونا ومستنقع النسبية المطلقة

بدأت النسبية تستشرى فى بلادنا، حتى إن الكثيرين من المثقفين اليساريين اكتسحتهم النسبية **فتخلو عن عقيدتهم الثورية** التى كانت تستند إلى معايير ثابتة، وأصبحوا من دعاة الأمر الواقع والتطبيع الحضارى وقبول ما هو قائم. ولكن، وهذا هو الغريب، يوجد فريق آخر لا يزال متمسكًا بقيم الإيمان بالقومية المستقلة وضرورة مقاومة إسرائيل، ومع هذا تجده ينطلق من الإيمان بنسبية كل الأشياء!.

وقد حضرت ندوة عُقدت ضد التطبيع مع إسرائيل حضرها ممثلو الأحزاب المصرية، وقدم فيها اليساريون بحثًا عن الهُوية المصرية. قالوا إنها كانت فرعونية ثم قبطية ثم عربية! وقولهم هذا يؤكد **التغير المستمر** بما يتطلبه ذلك من **إيمان بالنسبية**، بل وتنتهى الهوية بشىء عام لا لون ولا طعم ولا رائحة له أطلقوا عليه اسم «هوية مصرية حديثة». أشرت فى مداخلتى إلى أنه مع هذه التغيرات المذهلة لِمَ لا نتصور تحول هذه الهوية إلى **هوية شرق أوسطية، كما ينادى الصهاينة! أليست كل الأمور نسبية؟** فاستشاط كاتب البحث غضبًا، وهاج وماج.

الثمرة الحادية والستون...

موقف الفكر الدينى والوطنى من النموذج المادى

يمارس العقل العربى الإسلامى رفضًا للعقلانية المادية المظلمة، أساس الحضارة الغربية الحديثة، باعتبارها **لا تعنى تبنى العلم والتكنولوجيا وحسب، وإنما تعنى العلم والتكنولوجيا المنفصلين عن القيم والغايات الإنسانية.**

ويرجع فشل الحداثة عندنا – حتى الآن – إلى هذا الرفض، **فالإنسان العربى، مسلمًا كان أم مسيحيًّا، يملك منظومة من القيم التى تجعله إنسانًا متعدد الأبعاد**، له ذات حقيقية، يدرك الواقع من خلال منظور يتعامل مع صفات المادة (مثل الطول والعرض والسرعة والكثافة والعمق)، لكنه فى **نفس الوقت لا يستبعد الصفات الروحية**، ومن هنا فهو لا يسقط فى الأُحادية المادية التى تَرُد العالم بأسره إلى المستوى المادى فقط. إن معرفتنا بما حدث فى الغرب وبالثمن الفادح الذى يُدفع إن سقطنا فى هذه الاستنارة المظلمة يقلل من تكالبنا عليها بعض الشىء.

إن **نظرة تاريخية تضيف إلى أسباب تخوفنا**؛ فإن أول آلة معاصرة واجهتنا كانت هى **المدفع** الذى حمله الجندى الفرنسى ودك به جدران المجتمع التقليدى الشرقى، لا ليجلب النور والاستنارة وإنما لينهب الوطن. كذلك إذا نظرنا إلى محاولات **على مبارك باشا** لإعادة تخطيط القاهرة، نجد أن الجماهير لم تعارض فى تغيير أماكن المساجد والأضرحة، بل وهدم بعضها إن تطلب الأمر، إذ أحست أن هذا المصرى لا يريد أن يصيب منظومتها القيمية بسوء. أما بعد وصول **القوات الإنجليزية** إلى مصر عام 1882م لم يتمكن أحد من تحريك أى مسجد أو ضريح بسبب توجس الناس خيفة من الحكومة التى وقعت فى يد المستعمر.

الثمرة الثانية والستون...

العولمة = ما بعد الحداثة = النظام العالمى الجديد

*** عالم بلا أساس ولا مركز، عالم سائل لا قوام له**

لقد استمرت النسبية فى الاتساع حتى قوضت كل شىء، وقوضت الإحساس بأى قيم أو مركز، بل قوضت الإحساس بالوجود الحقيقى

للعالم. لقد اكتسحت السيولة والنسبية كل شيء فى طريقها، ولم يعد هناك أى أساس لأى شيء.

لقد دخل العالم فى مرحلة «ما بعد الحداثة» التى وُصِفَت بأنها تحطم كل اليقينيات والمسلمات، حتى سُمِّيت «ضد الأساس antifoundationalism»، لأنها تتعامل مع عالم بلا أساس ولا مركز ولا معيار يُحتكم إليه، عالم سائل لا قوام له. ومن ثم يمكن القول بأن **ما بعد الحداثة هى أيديولوجية النظام العالمى الجديد**، باعتبار أن ما بعد الحداثة تُنكر أى معيارية وأى قيم مطلقة يمكن الاهابة بها. إنها تُنكر وجود مركز أو إطار عام للعالم؛ فهى ترفض أن تعطى للتاريخ أى معنى أو أن تُعطى للإنسان أى قيمة أو مركزية، وتُسقط كل الأيديولوجيات (**عصر ما بعد الأيديولوجيات**)، وتنكر التاريخ (**عصر نهاية التاريخ**)، وتنكر الإنسان (**عصر ما بعد الإنسان**).

ولتوضيح هذه الفكرة ذكرت فى إحدى محاضراتى عن «**ما بعد الحداثة**» هذه **النكتة المصرية الصميمة**: «أراد أحد القضاة أن يوقظ ضمير الحشاش الذى مثل أمامه فى المحكمة عدة مرات وسأله: لماذا بالله عليك تدخن الحشيش دائمًا؟ فقال المتهم: حتى أنسى يا حضرة القاضى. فسأله: تنسى ماذا؟ فأجاب: والله مانا فاكر».

إن ما بعد الحداثة تُعبر عن **روح رأسمالية عصر الشركات عابرة القارات ومتعددة الجنسيات**، حيث قام رأس المال بإلغاء كل الخصوصيات (لا مانع من أن تتعاون دولتان اقتصاديًا بالرغم من أن بينهما اختلافات سياسية وعقائدية عميقة). كما حلت القيمة التبادلية العامة محل القيمة الأصلية للأشياء (يمكن أن يُباع حذاء بألفى جنيه لأنه ماركة عالمية مشهورة بينما ثمنه الحقيقى لا يساوى عُشر هذا المبلغ). هذه هى العولمة، التى يسميها البعض الآن العولمة الرأسمالية أو حتى العولمة المتوحشة.

نحن نذهب إلى أن العالم صار **يحكمه إيقاع ثلاثى**: المصنع (حيث يُنتج الإنسان) – والسوق (حيث يشترى ويبيع) – وأماكن الترفيه (حيث يُفرغ ما فيه من طاقة وعُقد وأبعاد)، أى إنه إيقاع يستوعب كلًا من الإنسان الاقتصادى والإنسان الجسمانى ويُشبع جميع رغباته البسيطة الطبيعية أحادية البُعد التى لا علاقة لها بأى تركيب إنسانى.

ويمكن القول بأن «**النظام العالمى الجديد**» هو «**عولمة**» **الإمبريالية النفسية** (تعميمها لتشمل العالم أجمع)، وكذلك **تعميم مفهوم الإنسان الاقتصادى / الجسمانى** الذى لا يكترث بالوطن أو بالكرامة، ولا يهمه سوى البيع والشراء والمنفعة واللذة.

وهذا السُعار الاستهلاكى ليس مسألة انحطاط خلقى وسلوك فردى واختيار حر، وإنما هو **وضع اجتماعى شامل** يهيمن على الإنسان من الخارج (ترشيد برانى) ويتبناه المرء دون أن يشعر (ترشيد جوانى). وإن نجح المرء فى مقاومة هذا الغزو فإن أفراد أسرته قد لا يكونون فى مثل صموده، ولن يستطيع أن يفلت من الضغوط الاجتماعية إلا بفعل عنيف؛ كأن يتحول إلى هيبى زاهد فى الدنيا، فالهيبى يجسد رفض المواطن العادى لهذا النظام العالمى الجديد.

الثمرة الثالثة والستون...

الحلم بحداثة جديدة

إن المطلوب هو حداثة جديدة:

«تتبنى العلم والتكنولوجيا ولا تضرب بالقيم الإنسانية عرض الحائط»

«تنمى وجودنا المادى ولا تنكر الأبعاد الروحية لهذا الوجود»

«تحيى العقل ولا تميت القلب»

«تعيش الحاضر دون أن تنكر التراث»

وهى مسألة ولا شك صعبة، ولكنها ليست مستحيلة.

ومن أجل التقدم نحو هذه **الحداثة البديلة** ينبغى:

1- **فصل الحداثة البديلة عن الاستهلاكية وعن مفهوم التقدم المادى، وربطها بمفهوم الطبيعة الإنسانية والإنسانية المشتركة**، بحيث يمكننا أن نحدد هدفًا للحداثة غير الإنتاج والاستهلاك.

2- **توسيع مفهوم التقدم بحيث يضم المادى والملموس وكذلك المعنوى والروحى.**

3- **أن نعيد تحديد معدلات الاستهلاك فى إطار احتياجات البشر المادية والمعنوية**، وليس مجرد زيادة الاستهلاكية.

وبهذه الطريقة قد يمكننا أن نحقق مشروع الحداثة البديل وأن نحقق التقدم دون أن نفقد اتزاننا ودون أن ندمر الكون.

العلم والتقدم

الثمرة الرابعة والستون...

ادَّعوا أن العلم هو التقدم

كنت فى بدايات شبابى أتحدث مع أحد العالِمين بشئون الزراعة، فأخبرنى إنه لو تم إدخال **ميكنة الزراعة فى مصر** لحدثت كارثة، إذ إن البطالة ستتفشى بين الملايين. كان كلامه مفاجأة كاملة لى لأن الصحف والمجلات

كانت لا تكف فى ذلك الوقت عن الحديث عن الميكنة بحُسبانها الحل لكل المشكلات.

وحدث أن سألت روبرت أوبنهايمر Robert Oppenheimer، **مكتشف القنبلة الذرية**: ماذا كان شعورك بعد اكتشافك أن مشروعك قد «نجح» وأن موعد إجراء أول تفجير قد أصبح وشيكًا؟ أجاب باقتضاب شديد: «لقد تقيأت»، أى أنه أدرك مدى وحشية النموذج العلمى الموجِه لسلوكه فى أثناء عمله على القنبلة الذرية، وأدرك أنه نموذج منفصل عن الإنسان وقيمه وغاياته (حتى إنه قضى بقية حياته يحارب ضد استخدام القنبلة الذرية). وقد ذكَّرتنى إجابته بما كتبه الفليسوف الفرنسى فرانسوا رابليه: «**إذا لم يقترن العلم بالضمير أدى إلى خراب النفس**»، كما ذكَّرنى ذلك بخطيب جامع الحبشى فى دمنهور الذى كان فى نهاية خطبة الجمعة **يستعيذ بالله من عِلْم لا ينفع**. وقد دعمت إجابة أوبنهايمر من **إحساسى بالاختلاف بين الإنسانى والمادى، وبقصور العلم الطبيعى عن الإحاطة بالمفاهيم الإنسانية والجمالية، وبخطورة انفصال التجريب العلمى عن الأهداف والأغراض الإنسانية، وبضرورة النظر إلى الإنسان باعتباره الغاية النهائية وليس وسيلة من الوسائل.**

الثمرة الخامسة والستون...

انتقال العلم من اليقين إلى الشك

قاد الإيمان من الشك إلى اليقين

بعد وصولى إلى الولايات المتحدة بدأ ينتابنى شك عميق فى بعض المقولات التى أصبحت مفاهيم مطلقة فى الغرب مثل الإيمان بالعلم والتقدم والتكنولوجيا.

لقد ظهر **الفكر المادى** فى القرن الثامن عشر وتلقى دفعة قوية من الاكتشافات «العلمية» فى القرن التاسع عشر. ويستند هذا الفكر المادى إلى مفاهيم «**فيزياء نيوتن**» التى ترى أن العالم يتركب فيزيائيًا من الذرات والجزيئات التى تحكمها قوانين نيوتن الثلاثة للحركة، ومن ثم سيطرت الرؤية المادية التى تقول بوجود قوانين فيزيائية تحكم عالم الظواهر، وهذه القوانين تُستنبط من التجربة والملاحظة.

لذلك **صار العالم - بما فيه الإنسان - واقع فى قبضة قانون السببية البسيطة الذى يتسم بالحتمية الميكانيكية** (أى أن السبب «أ» يؤدى بالضرورة إلى النتيجة «ب» بكل بساطة، مثلما تؤدى الحرارة إلى تمدد الحديد). ويتميز هذا العالم بوجود المكان والزمان المطلقين وبإمكانية الملاحظة التجريبية والموضوعية الدقيقة للواقع، وبالتالى لا مكان للحديث عن تأملات خارج معامل البحث ونتائج التجريب.

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر تتابع ظهور الميكروفيزياء (فيزياء الكون ومبدأ اللا تحدد للفيزيائى الدنماركى هيزنبرج ونظرية النسبية)، وقد أدت هذه المفاهيم إلى إضعاف مفاهيم فيزياء نيوتن الصلبة. انظر إلى هذه المفاهيم الجديدة:

1- إذا كان لدينا جسيمان فى مكان واحد، ورغبنا فى أن نتتبع مسار أحدهما اختلط علينا الأمر بينهما، ولم يعد بمقدورنا تمييز أحدهما عن الآخر. ويسمى ذلك فى الميكروفيزياء «**مبدأ الاشتباه**» أو «عدم التفريق بين الجسيمات الفردية المفحوصة».

2- نَشَرت مجلة تايم أخيرًا نتائج تجربة «علمية» تبين أن جزيئات الضوء (الفوتونات) حينما يخضعها الإنسان لتجربة ما، فإنها **تعى ما يحدث وتُغيِّر سلوكها**. وهذا مفهوم جديد كل الجدة، إذ كانت هذه إحدى

المشكلات التى تواجهها العلوم الإنسانية. فالإنسان حينما يكون واعيًا أنه موضوع للتجربة، يغيِّر سلوكه، فهل ستواجه العلوم الطبيعية المشكلة نفسها؟!

3- تتصرف وحدات الضوء (الفوتونات) فى بعض التجارب باعتبارها جسيمات، وفى تجارب أخرى تتصرف باعتبارها موجات! (قال أحد علماء الفيزياء متهكمًا: فى يوم السبت والاثنين والأربعاء نُعَرِّف الضوء بأنه جسيمات، ثم يصبح موجات بقية أيام الأسبوع)، ويُسمَّى هذا «**مبدأ الازدواجية**»، ولا يمكن لتجربة واحدة أن تبين أن الفوتونات ذرات وموجات فى آنٍ واحد، فكل تجربة تكشف إحدى الطبيعتين، إما ذرات وإما موجات (وقد حصل أينشتاين على جائزة نوبل لوصفه مبدأ الازدواجية هذا، وليس لتوصله لنظرية النسبية).

4- **نسفت النظرية النسبية الحدود الفاصلة بين التجربة وبين الشخص القائم بها (المراقِب)**، واعتبرته جزءًا من التجربة وليس ملاحظًا لها، ذلك لأن حركته أو سكونه يغيِّر فى نتائج القياس (كانت نتائج القياس فى الفيزياء الكلاسيكية مستقلة عن حالة المراقب). لذلك لم يعد من الممكن أن تحتفظ الفيزياء بموضوعيتها، أى **لم يعد الإنسان يرى الطبيعة على حقيقتها، وإنما يرى الطبيعة من وجهة نظره** وبناء على ظروفه وظروف التجربة.

5- بعد أن كان منطق العِلم (فى فيزياء نيوتن) لا يحتوى إلا على احتمالين فحسب؛ بمعنى أن تكون القضايا إما صادقة وإما كاذبة، أصبح من الممكن الآن وجود احتمالات عدة، فتكون القضايا إما صادقة، وإما كاذبة، وإما غير محددة وهو ما يُعرف بمبدأ «**اللاتحدد Uncertainity**». بل إن الواقع الفيزيائى أصبح يقبل تفسيرين ممكنين

فى وقت واحد، كل منهما يعادل الآخر فى صحته، ويبدو أن مثل هذا المنطق هو الصورة النهائية للميكروفيزياء حتى هذه اللحظة.

مما سبق يتضح أن سؤالنا: **ما المادة؟** لا يمكن الإجابة عنه بالتجارب الفيزيائية وحدها، وإنما يحتاج إلى **تحليل فلسفى للفيزياء**. بذلك أدركت أن **كثيرًا مما يسمَّى «القوانين العلمية» هى فى واقع الأمر مقولات فلسفية يؤمن بها العالِم قبل إجراء التجربة**. فعلى سبيل المثال إن قال أحد العلماء إن العالم «خُلق مَصادفة» فإنه يؤكد «إيمانه» بتلك الحقيقة كما يؤكد إخفاقه فى التوصل إلى فهم حقيقة أصل الكون. وحين يتحدث عالِم آخر عن «المادة ذاتية الخلق والتحريك» فهو هنا يتحدث عن شىء لا يفهم كُنهه. وفى كلتا الحالتين، فإن العالِمين قد انطلقا من مقولات فلسفية غيبية تسبق عملية التجريب ذاتها.

الثمرة السادسة والستون...

كلما ازددنا معرفة ازددنا جهلا

أخبرنى أحد أصدقائى من علماء الفيزياء أن الوصول إلى نظرية عامة (theory unification grand) تجمع قوانين الكون كلها يتطلب استيعاب كل ما توافر لدينا من معلومات، وقد أصبح هذا أمرًا مستحيلًا فى الوقت الحاضر. فالمعرفة الإنسانية التى تجمعت منذ بداية التاريخ حتى عام 1750، قد تضاعفت من عام 1750 – 1900، ثم تضاعفت مرة أخرى فى الفترة من 1900 – 1950، ثم أصبحت تتضاعف كل عشر سنوات ابتداءً من 1950 – 1990، والآن تتضاعف كل خمس سنوات. وإن أمكننا وضع كل المعرفة الإنسانية على جهاز كومبيوتر ضخم، ستظل هناك مشكلة استنباط النظرية العامة من هذه المعلومات. وأخبرنى عالِم آخر أن هناك إشكاليات فى العلم نعرف أنه يمكن حلها «نظريًّا»، ولكن يتطَلب ذلك أن يعمل الجيل الحالى من

آلات الكومبيوتر والجيل الذى يليه لفترة قد تستغرق كل ما تبقى من عمر الإنسان على وجه الأرض.

ونظرًا لعجز الإنسان عن الوصول إلى هذه «النظرية العامة»، فإن البديل يكمن فى تكوين «**منظور عام**» يصل إليه الإنسان من خلال التأمل والتفكر، منظور يعينه على فهم الكون والغاية من الوجود ليحيا الإنسان ويتصرف فى ضوء هذا الفهم.

لقد اتسع عالمنا على مستوى الماكرو (الأجرام – النجوم – الكون) وعلى مستوى المايكرو (الذرة – الجزيء... إلخ)، فاتسع نطاق المعرفة بشكل غير مسبوق. فإذا أضفنا إلى هذا مسألة التخصص الدقيق، فإننا تدريجيًّا نواجه العالِم المتخصص الذى يعرف الكثير عن تخصصه الضيق ويجهل الكثير عن أى شَىء آخر.

*** مشكلة عدم التحكم: انطلق المارد من القمقم**

لقد أصبح عدم التحكم فى الوجود سمة أساسية فى عصرنا، وكلما زادت ميكنة العالم والسيطرة عليه علميًّا، قلت إمكانية التحكم فيه. تنبأ أحد «العلماء» المتفائلين فى القرن التاسع عشر بأن الإنسان فى خلال ثلاثين عامًا سيعرف كل شىء، وستتم له السيطرة على الطبيعة وبالتالى لا لزوم للأخلاق أو الدين أو الإله. ولكن بعد مائة عام من التجارب العلمية، وجد الإنسان أنه **كلما اكتشف وسيطر على شىء ظهرت له آلاف الأشياء الجديدة التى لا يعرفها ولا يمكنه السيطرة عليها**، أى أنه كلما ازداد معرفة ازداد جهلًا، وفى ذلك قالوا إن العلم يزيد بمتوالية عددية فيتزايد الجهل بمتوالية هندسية!

مثال ذلك الموقف **تجربتنا مع الذرة**، التى حطمناها لنؤسس الفردوس الأرضى، وانتهى بنا الأمر إلى أننا نمسك بكرة اللهب؛ أى الأسلحة النووية

التى يمكنها تدمير العالم عشرات المرات والعادم النووى الذى لا نعرف كيف نتخلص منه. انظر كذلك إلى **الأغذية التى تحتوى على مكونات مُهندَسة أو مُعَدَّلة وراثيًّا** تضعف جهاز المناعة ويطلقون عليها «أغذية فرانكنشتاين»، لقد طُرد أحد العلماء الإنجليز لأنه راح يؤكد هذه المقولة. وهذا لا يختلف كثيرًا عما حدث لأحد أصدقائى العلماء فى الولايات المتحدة، إذ اكتشف أن **أفران الميكروويف** تسبب أضرارًا جسيمة للإنسان، وقبل أن يتوصل للنتائج النهائية سُحبت منه ميزانية البحث بحجة توفير الاعتمادات. ونفس القول ينطبق على **شاشات الكومبيوتر والتليفونات المحمولة** التى لا نعرف حتى الآن أثرها على عيون الإنسان وجسده ودماغه.

وقد طرح أحد العلماء البيولوجيين عدة أسئلة عن أمور بسيطة، ولكنها تبين محدودية المعرفة الإنسانية: لماذا ينفرد البشر بين كل الفقاريات الثديية باستخدام الأطراف اليمنى غالبًا دون اليسرى؟ لماذا تتغيَّر حالة نباتات الظل المنزلية بتغيُّر أمزجة أصحابها ونفسياتهم؟ ولماذا تطير أسراب الطيور على شكل الرقم 8؟ كيف تنجح حيوانات صغيرة كثيرة (أسماك وطيور) فى الارتحال عبر آلاف الأميال دون خرائط ولا بوصلات نحو مكان هجرتها وتكاثرها، جيلًا بعد جيل، فتصل إلى نفس المكان، برغم أنها لم تكن قد ذهبت إليه من قبل؟. إن الإجابة عن هذه الأسئلة تعتمد أساسًا على الاعتراف بأن عالمنا يحتوى على الآلاف من العناصر والقوانين المجهولة التى لم تخطر على بال عالِم فى يوم من الأيام.

*** تجارب الهندسة الوراثية وخطورة اللعب بالنار**

يقف كثير من العلماء الذين حققوا اكتشافات فى حقل الهندسة الوراثية الآن ضد إجراء التجارب فى هذا المجال خوفًا من عواقبها الوخيمة، وذلك بعد انفصال النزعة التجريبية عن النزعة العقلية والأخلاقية والإنسانية،

فأصبح التجريب غاية فى حد ذاته، بغض النظر عن نتائجه التى قد تودى بالإنسان!.

كانت الأخطاء فى التجارب العلمية فى الماضى تحدث **داخل دورة الطبيعة ولا تتحدى قوانينها**، ولهذا كانت دورة الطبيعة قادرة على معالجة مثل هذا الخلل. بل قد يستمر التلوث الإشعاعى لآلاف السنين، لكنه يظل داخل دورة الطبيعة التى تُصلحه. أما **تجارب الهندسة الوراثية** فتختلف عن التهجين القديم فى أنها تتجاهل تمامًا حدود البيولوجيا، فالعلماء يقومون بإضافة جينات من الفيروسات أو البكتريا أو الحيوانات إلى الشفرة الجينية لأنواع النباتات التقليدية، و قد تأتى هذه التجارب بمخلوقات لا يمكن لدورة الطبيعة أن تتعامل معها؛ فهى مخلوقات تقع خارج نطاق حلقة التطور الطبيعية. كذلك ظهرت أخيرًا مشكلة «**التلوث الجينى genetic pollution**»؛ كانتقال الجينات التى تم إدخالها على أحد النباتات (بقصد جعلها أكثر إنتاجية وأكثر مقاومة للمناخ) إلى نبات آخر (أعشاب ضارة على سبيل المثال) مما يجعل القضاء عليها صعبًا أو مستحيلًا.

*** بروميثيوس وفاوستوس وفرانكشتاين وأخيرًا دكتور جيكل ومستر هايد**

تعرضت فى أعمالى الأدبية **لتورط الإنسان الغربى فى التجريب المتحرر من القيمة والغاية** من خلال بعض الأساطير الأساسية التى هيمنت على وجدانه. وأولى هذه الأساطير **أسطورة بروميثيوس** الذى سرق النار من الآلهة وأعطاها للإنسان (بهدف الاستنارة بطبيعة الحال، وهذه هى الأسطورة العلمانية الكبرى)، ثم بدأت النار تحرق أصابعه وتساهم فى هلاكه وتصفيته (ثقب الأوزون والتلوث وتآكل الأسرة واجتثاث أشجار الغابات المطيرة الاستوائية وازدياد غاز ثانى أكسيد الكربون). ثم تلتها **أسطورة**

فاوستوس الذى باع روحه للشيطان فى سبيل المعرفة الكاملة التى تُمَكِّنه من التحكم فى الواقع والزمان. ومع بداية القرن الثامن عشر ظهرت **أسطورة فرانكشتاين**، هذا الكائن القبيح الذى خلقه عالم «مستنير» يؤمن بالعلم وبقدراته ليسخره فى خدمته، ولكن المخلوق يقتل خالقه بعد قليل وينطلق حرًا ليعيث فى الأرض فسادًا وفى الناس قتلًا. ثم ظهرت بعد ذلك أساطير مثل **دكتور چيكل ومستر هايد وغيرها**، والتى تشير إلى خوف الإنسان على ذاته الإنسانية (دكتور چيكل) من عقله المادى المجرد (مستر هايد). الذى يتحرك فى إطار القوانين العلمية والمعادلات الرياضية اللاإنسانية. تشير تلك الأساطير مجتمعة إلى أن ثمرة العلم المجرد من الإنسانية هى إبادة الإنسان.

الثمرة السابعة والستون...

افتحوا ملفات ثمن التقدم، قارنوا عائد التقدم بتكاليفه الباهظة

إن جوهر الحضارة الغربية هو الإيمان بمفهوم «**التقدم**» **السريع والدائم بأى ثمن، إلى أن أصبح التقدم العلمى هدفًا فى حد ذاته**. ولكن يبدو أن مشكلة البيئة فى المجتمعات الصناعية قد بدأت فى التفاقم، ولأول مرة بدأ المفكرون، بل المواطنون العاديون، يتحدثون عن «**تكاليف**» التقدم.

إن التقدم، كما علمونا، هو **تطبيق النموذج الغربى فى التنمية والاستهلاك، وهو نموذج مبنى على غزو الطبيعة والسطو عليها** (20٪ من سكان العالم من أهل الغرب يستهلكون 80٪ من مصادرها الطبيعية). والآن، ماذا لو «تقدمت» الصين والهند (وهذا ما يحدث الآن فعلًا) حسب المقولات الغربية؟ ألا يعنى هذا بليون سيارة جديدة تسير فى الطرقات تحرق الأوكسچين ويخرج عادمها ليتلوث جو الكرة الأرضية، خاصةً إذا ما «تقدمت» البرازيل هى الأخرى وبدأت فى اجتثاث الغابات المطيرة الاستوائية (لتؤسس المصانع والطرقات

وتحقق «التقدم المنشود» على الطريقة الغربية، فهذا حقها القومى)، إنها بذلك تكون قد اجتثت مصدر ثلث الأوكسچين فى العالم.

تستند فكرة التقدم الغربية إلى لا محدودية الموارد الطبيعية، بالرغم من أن الممارسة أثبتت عكس ذلك! فهناك معادن آخذة فى الاختفاء، وهناك أنواع من الحيوانات والنباتات تنقرض سنويًّا، وهناك مشكلة النفايات الآخذة فى التزايد بشكل مخيف (يقال إن فى غضون عدة أعوام – لو استمر التقدم على معدله – فإننا سنحتاج إلى ستة كواكب فى حجم الكرة الأرضية كمصدر للمواد الخام وكوكبين آخرين للتخلص من نفايات الاستهلاك الوحشى المرتبط بالتقدم). وبطبيعة الحال، هناك النفايات النووية، التى لم نعرف طريقة أكيدة للتخلص منها بعد. ومن المفارقات الساخرة أن الثورة العلمية التى نجحت فى تطوير السلاح بشكل غير مسبوق فى تاريخ البشرية، فشلت حتى الآن فى حربها ضد الأنفلونزا. **إن التقدم الذى كان من المفروض أن يحقق سعادة الإنسان الأرضية أصبح يهدد وجوده على هذا الكوكب.**

ولننظر إلى جانب آخر، هل **جهاز الإنسان العصبى** قادر على استيعاب كل هذه الأحاسيس والأفكار والمعلومات وأخبار المجازر والكوارث التى تُرسَل له يوميًّا من بيئته المحلية والعالمية؟. وهل من قبيل المصادفة أن الجلطة الدماغية على مستوى العالم أجمع آخذة فى التزايد فى السنوات الأخيرة؟.

وأتساءل؛ **هل مجرد «إنتاج» سلعة ما هو «تقدم»، أم إن التقدم والتخلف يقاسان بمقاييس تقع خارج نطاق الأشياء والكم؟**. وإذا كان الحديث عن تلوث البيئة (الطبيعة الخارجية) أصبح أمرًا شائعًا فى الغرب، فإن الحديث عن **تلوث الإنسان (الطبيعة البشرية)** سيصبح أمرًا مطروحًا عما قريب لا محالة. إن المجتمعات الاستهلاكية تظن أنها قادرة على إشباع جميع رغبات الإنسان، متجاهلة ازدواجيته ومُسقطة احتياجاته الروحية من الحُسبان، مما يسبب

البؤس للبشر. لذا أطالب الآن بفتح **ملفات «ثمن التقدم» ومقارنة عائد التقدم بتكاليفه، وأن ننظر للتقدم المادى فى إطار ما يُحدِث من «تخلف إنسانى»**.

كل هذا جعلنى أتحفظ بخصوص مقولات أصبحت مطلقة بالنسبة للبعض، مثل التقدم التكنولوجى والتجريب العلمى. وهذا لا يعنى أننى أرفض المعرفة العلمية رفضًا كاملًا (كما يفعل بعض غلاة السلفيين) ولا أننى أقبلها قبولًا كاملًا بحُسبانها المعرفة الوحيدة الممكنة (كما يفعل بعض غلاة العلمانيين). كل ما فى الأمر أن قبولى لها أصبح مشروطًا وغير مطلق.

إدراك ثنائية الإنسان ومراحل التحول

الثمرة الثامنة والستون...

جعلوا الروحانية وسيلة إلى المادية:

فرعـون يتخفـى فى زى آمـون

لاحظت أن بعض **الكتابات الأدبية والفلسفية الغربية** (وخصوصًا تلك التى توصف بأنها «**صوفية**») لا تفرق بين «الروحى» و«المادى». فالروحى يصير ماديًّا، والمادى يصير روحيًّا.وقد لاحظت هذا التداخل فى **الكنيسة الموحدانية**، لدرجة أن شعائر الصلاة فى هذه الكنيسة تتغيَّر من يوم ليوم حسب هوى أعضاء الكنيسة ورغباتهم، حتى إن فى أحد الاحتفالات قامت إحدى راقصات الستريبتيز striptease بالتعبير عن مشاعرها «الدينية والروحية»، عن طريق خلع ملابسها قطعة قطعة فى الكنيسة، ولم يعترض راعى الكنيسة على ما حدث واكتفى بالقول إنها طريقة غير تقليدية للتعبير عن الإيمان الدينى!. ومن الشائع فى الولايات المتحدة أن يقول أحدهم إن زيارته للمتحف أو للمطعم أو حضورة لعرض مسرحى أو غنائى (بل وتجربته الجنسية) كانت تجربة «روحية».

obeikandl.com

وتعود بدايات هذه الملاحظة إلى طفولتى؛ إذ لاحظت العلاقة الحميمة بين والدى التاجر الكبير وشيخه، شيخ الطريقة الحصافية فى دمنهور. كان والدى (الشخصية الفاوستية الجبارة المؤمن بالتراكم الرأسمالى، والذى كان يقضى معظم وقته فى البيع والشراء وإبرام الصفقات) يتجاوز العقلية التعاقدية ويتحول إلى حمل وديع فى حضرة شيخه، وينفق عليه وعلى حاشيته بسخاء، ويقيم الولائم احتفالًا بمقدمه.

ولذا بدأت أتساءل:

هل ثنائية الروح والمادة، والمقدس وغير المقدس، عند هؤلاء، ثنائية زائفة؟

هل يستخدمون كلمتى «مادة» و «روح»، دون تمييز بينهما، وأن عالمهم مكون من **جوهر واحد؛ يسميه البعض «الإله» أو «الروح» ويسميه البعض الآخر «الطبيعة» أو «المادة» أو حتى «الذات»؟**

ومن ثم فالاختلاف بين الفريق المادى والفريق الروحى عند هؤلاء ليس اختلافًا حقيقيًا وإنما اختلاف فى التسمية وحسب.

هل يعتبرون أن الإله قد حل فى الطبيعة (الميتافيزيقا الحلولية) وأصبح جزءًا لا يتجزأ منها؟

وهل هذه الميتافيزيقا الحلولية هى ميتافيزيقا من لاميتافيزيقا له، أى **ميتافيزيقا مادية بلا أعباء أخلاقية؟!**.

لقد بدأت أفهم تلك «**الروحانية المادية**» التى يمثلها المتصوف المادى الذى يحمل ذاتًا فاوستية تبتلع الدنيا، إنه ليس متصوفًا بمعنى الزهد وإنما بمعنى إنه يحب أن يصل إلى جوهر الأشياء ليهيمن عليها؛ «**إنه فرعون يتخفى فى زى آمون**».

ففى هـذا الفكر تتحـد الروح بالمـادة والمقـدَّس بغير المقـدس، بحيـث **لا يوجد فارق بين الإنسان المركب والطبيعة البسيطة!**. إنه نفس الفكر الكامن وراء الرأسمالية الاستهلاكية والإمبريالية، وكذلك وراء كل الفلسفات الفاشية المادية التى تعلن أن الفردوس هنا (اليوتوبيا التكنولوجية)، وبذلك تعلن انتصار المادة وإلغاء استقلال الإنسان عن النظام الطبيعى المادى.

وعندما أدركت ذلك، تخليت عن نظرتى للعالم باعتباره وجودًا واحديًّا ماديًّا بسيطًا يقوم فقط على العلاقات الاقتصادية. وهكذا **انتقلت من سذاجة المادية واختزاليتها إلى إدراك تركيبية الظاهرة الإنسانية**.

وعندما تأملت تحول المفكر الفرنسى روجيه (رجاء) جارودى إلى الإسلام وجدته موقف منطقى للغاية ومتسق مع فكره، فهو يبحث عن نظام يؤكد مقدرة الإنسان على تجاوز عالم المادة وسوق السلع، وقد وجد ضالته فى التوحيد الإسلامى (بدلًا من واحدية السوق)، وهذا هو نفس مدخلى إلى عالم الإيمان الرحب.

الثمرة التاسعة والستون...

المرحلة الأولى: الإله الخفى

حاولت أن أمسك العصا من الوسط

لم يتم الانتقال من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية بسهولة، كما لم أدرك بسهولة أن هناك قانونين: **أحدهما للإنسان والآخر للمادة، وليس قانونًا ماديًّا واحدًا** يسرى على كليهما. لقد كان الانتقال عملية طويلة شاقة استمرت أكثر من ربع قرن. **فالفلسفة المادية فلسفة مريحة** تختزل الواقع وتختزل الوجود الإنسانى فى قوانين المادة، لذا فهى قادرة على تزويد الإنسان بأجوبة واقعية وسريعة ومريحة.

ورغم إحساسى بقصور هذه الفلسفة المادية، فقد حاولت لبعض الوقت أن أمكث داخل حدودها، فتغيير الرؤية ليس مسألة سهلة أو هينة. لذا **حاولت أن أنقذ إنسانية الإنسان من السقوط فى حمأة الطبيعة / المادة، على أن أبقى داخل حدود المادة، ويالها من مفارقة!**

ويبدو أن هذه ظاهرة متكررة فى تاريخ الفكر الإنسانى، وقد أسميتها «**ظاهرة الإله الخفى**». وأعنى بها أن الإنسان قد يؤمن بشكلٍ واعٍ بنموذج مادى، ويظن أنه قد تشربه تمامًا حتى أصبح جزءًا لا يتجزأ من رؤيته ووجوده، ولكن هذا الإنسان الطبيعى/ المادى – فى ظروف معينة – تُفصح أقواله وأفعاله عن وجود شىء ما فى أعماق أعماقه يتناقض مع الإطار المادى الواحدى الذى تبناه، وعندئذ يبدأ فى البحث عن المقدس داخل عالم الطبيعة / المادة (ذلك العالم الذى لا قداسة له ولا حرمات). وهذه محاولة للحفاظ على استقلالية الإنسان عن الطبيعة وعلى قداسته وحريته دون التخلى عن الإطار المادى.

الثمرة السبعون...

المرحلة الثانية: العنصر الكونى

رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة

بدأت البحث عن مفاهيم ثابتة فى عالم المادة تؤكد استقلال الإنسان وحريته وقداسته، وتحتفظ به فى الوقت نفسه داخل الإطار المادى. ولعدم تقبلى مفهوم «العنصر الربانى» فى الإنسان آنذاك، كنت أتحدث عن «**العنصر الكونى**» الذى كنت أُعَرِّفه بأنه «العنصر الثابت نوعًا» فى الإنسان والطبيعة. واعتبرت أن العناصر الكونية هى **مفاهيم معنوية استقرت عبر التاريخ وتوجد داخل عالم المادة**. ومن أمثلة العنصر الكونى:

1- لاحظت أن الإنسان باسم «**التقدم**» بدأ **يستهلك موارده الطبيعية بسرعة فائقة وغير رشيدة**، مما يؤدى بنا إلى التهلكة: بيئة ملوثة، عالم نتنافس فيه على المواد الخام، كون أقرع لا خضرة فيه، أنهار تحمل الأحماض القاتلة بدلًا من المياه الصافية، هواء يحمل كميات محترمة من أول أوكسيد الكربون. وحينما تقرأ جريدتك اليومية فى الصباح، فلتتذكر أيها الإنسان الاستهلاكى الأشجار التى قطعتها الفأس الصناعية العلمية لتزودك بكَم هائل من الأخبار، أنت فى غنى عنها، فقد سمعتها فى النشرة الإخبارًية! إن التقدم العلمى سيؤدى إلى ورطة كونية، ولا يمكن إنقاذنا من هذا المصير إلا بتبنى مفاهيم استقرت عبر التاريخ **تؤكد أهمية الاتزان والتفاهم مع الطبيعة**.

2- امتد هذا الاستنزاف إلى داخل الإنسان نفسه، فبدأ يفقد ذاته ويعيش فى غيبوبة كاملة من المخدرات والشذوذ الجنسى، وشرع فى إجراء تجارب تؤدى حتمًا إلى خلق أمساخ من البشر. ولا يمكن انقاذ الإنسان إلا من خلال مفاهيم ترسخت عبر التاريخ **بأن الإنسان الواعى خير من الإنسان الذى يفقد رشده**، وأن **العلاقة الجنسية المثلى هى العلاقة بين الرجل والمرأة** وليست بين فردين من نفس الجنس.

3- يُعتبر اهتمامى بالتاريخ مثالًا لمفهوم العنصر الكونى، فالتاريخ من صنع الإنسان وليس من صنع الطبيعة/ المادة. وقد ترجم هذا الاهتمام نفسه إلى ضرورة تأكيد الهوية القومية. وللتعبير عن هذه الهوية بدأت فى تغيير بعض معالم حياتى، فكنت - على سبيل المثال - أرتدى جلبابًا ريفيًّا فى الحفلات التى تُقام لتوديعى فى الولايات المتحدة حين حصلت على الدكتوراه، إعلانًا عن أن عودتى ليست مجرد عودة جسدية وإنما عودة روحية.

4- ولعل عدائى للصهيونية ينبع من نفس المصدر، فهى أيديولوجية تنكر التاريخ وبالتالى تعادى الإنسان والقيم، ولذا تبنيت القضية الفلسطينية التى تحولت إلى القضية المحورية فى حياتى، فهى **قضية ذات مضمون أخلاقى واضح** لا يمكن التفاوض بشأنها (عنصرًا كونيًا)، ولا يمكن للإنسان أن يرفضها إلا من منظور داروينى مادى شرس (البقاء للأقوى).

الثمرة الحادية والسبعون...

المرحلة الثالثة: التساؤلات والحيرة ثم الهداية

أحوم حول فطرة الله التى فطر الناس عليها: المرجعية والمعيارية

حينما عدت من الولايات المتحدة إلى مجتمع الانفتاح فى مصر عام 1979، أخذت الأسئلة بخصوص النموذج المادى والنسبية المطلقة تهاجمنى بلا هوادة. لقد وجدت أن داخل إطار هذا النموذج تكون كل الأمور مادية ومن ثم متساوية، وأن آراء أى إنسان - مهما بلغت من ذاتية أو موضوعية ومهما بلغت من خساسة أو نبل - تُعتبر صحيحة، **فالإنسان مرجعية ذاته**، يرى ما يرى. فهو قد يقرر أن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق أمر غير مشروع يوم السبت، أما يوم الثلاثاء فقد يرى غير ذلك، وهو فى كلتا الحالتين على حق وعلى صواب! ومن ثم لا يمكن رفض النازية والصهيونية والإمبريالية بحُسبانها خطأً أو أمرًا يتنافى مع الأخلاق. المشكلة أنه حينما يسقط كل شىء فى قبضة الصيرورة (الإقرار بالأمر الواقع) يصبح كل شىء مباحًا.

ثم **عصفت بيّ التساؤلات والحيرة**: أليس الإنسان الطبيعي/ المادى، الذى يتبع دوافعه الاقتصادية وغرائزه الجنسية، أقرب إلى الحالة البشرية منا نحن الذين لا نزال نعيش داخل إطار الحضارة الشرقية والمجتمع والأسرة؟،

على أى أساس يمكن أن نحكم على الأشياء؟ كيف نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر؟ هل هناك معروف وهل هناك منكر؟

وكنت أُلاحظ أن بعض الناس أشرار دونما سبب، الشر فيهم عميق متأصل، كما كنت ألاحظ أن معظم البشر برغم ما فيهم من شرور يحوون قدرًا كبيرًا من الخير. وقد طرح ذلك سؤالًا علىَّ: كيف نفسر هذا الخير؟ هل الإنسان الطبيعى/ المادى قادر على إتيان أفعال الخير؟ لِمَ أفعل الخير وأتحاشى الشر؟ هل هذا هو أثر البيئة فىَّ وحسب؛ عملية تربيةَ اجتماعية لا أكثر ولا أقل؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلِم أتمسك إذن بالأخلاق؟ لم **لا أعلن نفسى إلهًا**. إنسان نيتشه الكامل الذى يشكل عالمه الأخلاقى الخاص به ولا يحكم على نفسه وعلى الآخرين إلا بمعاييره هو؟.

ولاحقتنى الأسئلة تطاردنى وتنهكنى وكادت تقضى علىّ، خاصةً حينما آتى بفعل فاضل، يكلفنى الكثير. أمر مُرهِق حقًّا أن يفكر المرء بتوتر فى كل موقف يواجهه، ويوازن الأمور ويحكم عليها فى ضوء نموذجين متناقضين: أحدهما مادى والآخر إنسانى، ثم يقرر ودون سبب واضح، أن يختار الثانى دون الأول. وقد استمر بحثى المحموم لمدة ربع قرن قبل أن أصل إلى ما وصلت إليه من اقتناعات إيمانية.

لقد تنبهت إلى خطورة المادية والنسبية واستحالة أن يعيش الإنسان فى عالمه المادى المتحرك دون مركز ودون قيم ودون مرجعية. وأدركت إنه لا يمكن «الحكم» على شىء ولا يمكن التمييز بين الخير والشر مع غياب المعيارية، فإصدار حكم على شىء ما يتطلب وجود أرضية فلسفية وأخلاقية تحوى بعض المُسَلَّمات والبديهيات المتجاوزة لقوانين المادة والحركة، تجعل بوسعنا الحكم والتمييز.

الثمرة الثانية والسبعون...

آلام الانتقال

شاركنى الشعراء حيرتى

كانت المحاضرات التى ألقيها على الطالبات فى كلية البنات فى جوهرها حوارًا مع ذاتى بصوت عال، ومحاولة للوصول إلى أجوبة عن الأسئلة التى تلاحقنى. وقد قمت بتدريس الشعر الرومانتيكى والفيكتورى، وهما يناقشان نفس المشكلات الفلسفية التى واجهتها ويحاولان الإجابة عن نفس الأسئلة التى طرحتها.

ومن الشعر الرومانتيكى أذكر قصيدة «**الملاح القديم**» **لكوليردج**، وهى قصة ملاح يتسم بسذاجة وسطحية الماديين ونفعيتهم، فيصرع طائر القطرس الأبيض رمز الجماعة الإنسانية والمحبة، بل رمز الإله، فيواجه عالمًا ماديًّا تعاقديًّا بلا إله، لا رحمة فيه ولا محبة. فتصبح الحياة خرابًا ويبابًا وتتوقف سفينته عن الإبحار، بل تتعفن المياه نفسها. وبالتدريج يكتشف الملاح أن عالم المادة وحسابات المكسب والخسارة لا تنفع كثيرًا فى عالم الإنسان، عندها يتحول عالمه من مادة محضة إلى عالم تسرى فيه الروح والقداسة، فيدرك جمال أصغر المخلوقات البحرية وأكثرها قبحًا ويباركها، ويفقد الرغبة فى السيطرة والتحكم. عندها تذهب اللعنة وتحل البركة؛ لأنه أثبت مقدرته على الحب وعلى الإحساس بالجمال وعلى الانطلاق من عالم المادة. ويعود الملاح للجماعة الإنسانية بعد طول غربة وعزلة وانفصال. هذه القصيدة تركت فيَّ أثرًا عميقًا وجعلتنى أبحث عن غير المنظور.

ومن قصائد **وليام وردزورث** تعجبنى قصيدته المعنونة «لندن عام 1802»، التى يهاجم فيها الشاعر القيم النفعية التى سادت فى وطنه. فالبورجوازية الشرهة التى ركَّزت كل اهتمامها على الإنتاج وعلى البيع

والشراء أحلت الكم محل الكيف حتى أصبح أكثر الناس ثراءً هو أفضلهم، مما أدى إلى التلوث المادى والمعنوى. وفى قصيدته «**ما أكثر ما تستغرقنا الدنيا**» يقول وردزورث إنه يفضل أن يكون وثنيًّا بدائيًّا، حواسه متيقظة، عن أن يقف إنسانًا بليدًا؛ بلا إحساس ولا خيال ولا عاطفة، إنسان المجتمع الصناعى البورجوازى. إن البحر بالنسبة للوثنى لم يكن مجرد مسطح شاسع من المياه، وإنما كان مكانًا يزخر بالآلهة وأنصاف الآلهة مثل بروتيوس، رجل البحر العجوز فى الأساطير الإغريقية، الذى اعتاد أن يرعى قطعانه ظهرًا بالقرب من الشاطئ، ومثل ترايتون، إله البحر، الذى كان يُصوَّر حاملًا صدفة يستخدمها كبوق يُطلق منه أصوات جميلة مخيفة تثير البحر أحيانًا، وتجعله هادئًا أحيانًا أخرى.

وتزداد الأزمة اتساعًا فى **الشعر الفيكتورى**. فشعر **ألفريد لورد تنيسون** Alfred Lord Tennyson يتناول وبشكل واضح نفس القضايا التى واجهتنى كمثقف يبحث عن مركز فى العالم. ويجب ألا ننسى أن تنيسون كان يعيش فى عصر دارون الذى حاول أن يربط بين الإنسان والطبيعة، والذى حاول أن يبيِّن أن حياة الإنسان لا تختلف كثيرًا عن حياة الحيوان. ولذا يتساءل تنيسون عما إذا كان الإنسان «الذى يكلله الجلال وينشد المزامير تحت السماوات الممطرة» يمكن أن يتحول إلى مجرد مادة وكأنه «رمال فى الصحراء تذروها الرياح»؟ إن التساؤل هنا ديني/ إنسانى فى الوقت نفسه، فوجود الغيب مرتبط بوجود الإنسان، فهل الإنسان مجرد جسد ورغبات كَمِّية محدودة، أم أنه كلٌ مركّب يعلو على المادة البسيطة؟ هل الإنسان مجرد عنصر من العناصر الطبيعية الأخرى، أم إنه سيد الكون وأشرف المخلوقات؟ وعلى المستوى الأخلاقى يكون التساؤل: هل هناك مجال للقيم الأخلاقية والروحية بالمعنى العام، أم أنه يجب على الإنسان أن يخضع لقانون العرض والطلب؟.

حرية الإرادة: قبس من نور الألوهية

حينما دَرَّست مادة الحضارة، ركزت على مفكرى القرن التاسع عشر فى إنجلترا، وكانوا كلهم يواجهون نفس المشكلات التى واجهها الشعراء الرومانتيكيون والفيكتوريون: كيف يمكن أن نعيش فى عالم مادى تمامًا بلا مرجعية غير مادية؟.

كانت كتابات جون ستيورات ميل John Stuart Mill – الأخيرة بالذات – تستهوينى، فقناعات فيلسوف النفعية والليبرالية أخذت تهتز بشدة فى أواخر حياته، وكان يردد:

«خير لى أن أكون سقراطًا ساخطًا من أن أكون خنزيرًا راضيًا».

فكنت أسأل بدورى: إن الخنزير الذى يعيش فى عالم الحواس والمادة لا تهاجمه أى شكوك أو تساؤلات ولا يسأل عن أى أخلاقيات أو مطلقات، فماذا عن سقراط؟ لماذا هو ساخط؟ ولماذا نفضله على الخنزير الراضى؟.

ويجيب الفيلسوف «إن الخنزير خنزير لأنه أصبح كذلك دون اختيار، أما سقراط فقد شاء ألا يكون خنزيرًا. «**حرية الإرادة**» إذًا هى المدخل لعملية التفضيل».

فأسأل نفسى: وإذا كانت الأمور مادية محضة، فما مصدر حرية الإرادة هذه؟. **إنها النور الذى يضعه الإله فينا ويعبر به عن نفسه.**

الثمرة الثالثة والسبعون...

المرحلة الرابعة والأخيرة: كتاب الفردوس الأرضى

الإشراق المادى والإشراق الروحى

وفى النهاية كتبت كتاب الفردوس الأرضى (الذى بدأته عام 1971

وانتهيت منه عام 1979) ناقشت فيه كل تساؤلاتى، **فهاجمت منطق التقدم المادى الدائم وتسليع الإنسان**. ولكن الأهم من هذا، أن **الكتاب مليء بالإشارات ذات النكهة الدينية**، فعلى سبيل المثال حينما كتبت عن الهيبى اختتمت المقال بهذه العبارة: «**حقًّا إن الصمت هو قدس الأقداس للمنتشى الذى يفقد عقله، أما آدم فقد كان عليه أن يتعلم الأسماء كلها كى يصبح إنسانًا سويًّا تخر له الملائكة ساجدين**».

وتناولت فى الكتاب **لحظة الإشراق والكشف المادية الكبرى** فى حياة نورمان بودورتز (المفكر الصهيونى اليهودى) كما يصفها هو: «لا شك أنه من الأفضل أن أكون ثريًا على أن أكون فقيرًا، من الأفضل أن تعطى أوامر من أن تتلقاها، من الأفضل أن تكون معروفًا على أن تكون مغمورًا». وهكذا يسيطر الخطاب الإمبريالى تمامًا وتتعالى **الصلوات لربة النجاح**. وعندما يصبح مقالًا كتبه موضوعًا حادًا للنقاش يثير الأمر الغبطة فى قلبه، لا لأن المقال جيد (يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر) أو لأنه حقق ربحًا (تجارة يصيبها أو امرأة ينكحها)، وإنما لأن المقال جعل منه موضوعًا للحديث، وهذا هو المهم، أن يظل هو السلعة الرابحة والشىء المطلوب. لقد **أصبح هو نفسه «الإنسان السلعة»** ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبذلك يجسد بودورتز الحضارة الأمريكية، فهو يؤمن بأن **النجاح (الخارجى) هو مقياس القدرات الداخلية**. وبذلك تكون الإمبريالية النفسية الأمريكية قد قضت قضاءً مبرمًا على الإنسان الأمريكى وحولته إلى شىء يُقاس.

ويبقى السؤال فى نهاية الأمر: **ما النجاح الذى عنه تبحث؟** ما الآلام والآمال؟ هجرة لله ولرسوله أم هجرة تجارية للحصول على الأشياء ومزيد من الأشياء؟. سؤال إن لم يسأله الإنسان كان كالحيوان الأعجم الذى لا روح

له، أو يكون مثل بودورتز الذى تعبَّد فى محراب ربة النجاح المادى والأشياء والنقود والشهرة، أو كالجبل الأصم الذى لا يستطيع أن يحمل الرسالة التى عرضها الله عليه وفَضَّل أن يقف وسط الطبيعة مساويًا لها، ليس فيه ما يميزه عنها.

وفى مقابل هذا، طرحت فى الكتاب **سيرة الزعيم المسلم الأسود مالكولم إكس**، وبدأت حديثى عنه بهذه العبارة: «حينما تغمض عينيك فإنك تبصر؛ لأن الإنسان له بصر وبصيرة، عين حسية (مادية) ترى الأشياء وأخرى (روحية) تخترق السطح لتصل إلى البنية الكامنة وطبيعة الوجود (**ثنائية المادة والروح** التى تميز حياة الإنسان الإنسان). ونتعلم من مالكولم إكس أن على الإنسان أن يحلم دائمًا بعالم من **البراءة الأولى** وبذا يحتفظ بقدر من النقاء الروحى، **والإسلام** بالنسبة لمالكولم هو حلم البراءة هذا، فقد زوده بإطار مثالى حرره من مفاهيم وأخلاقيات مجتمعه العرقية (على عكس بودورتز الذى كان يتعبَّد فى محراب ربة النجاح المادية الأمريكية). لقد أدرك مالكولم أنه عندما صار طائرًا مفترسًا لم يكن ذلك بسبب شرٍّ كامنٍ فيه وإنما بسبب وجوده فى عالم الرجل الأبيض المادى المبنى على التنافس الذى يلتهم فيه الإنسان أخاه الإنسان. لقد رفض بيع روحه لشيطان العنصرية والمادية.

إن تلك السيرة الذاتية هى حقًّا ترتيلة تمجيد لروح الإنسان، القادرة على التحمل، بل على الانتصار.

*** التاريخ والفردوس فى القلب:**

أختتم كتاب الفردوس الأرضى بكلمة بعنوان «**التاريخ والفردوس فى القلب**»:

«فى المرة الأولى، ذهبت إلى الولايات المتحدة مع زوجتى. وحينما عدنا عام 1969 مع ابنتنا، كانت أمى تنتظرنى فى الميناء وكان معها إخوتى وأخوات

زوجتى وأبناء عمومتى. أما أبى فكان غائبًا لأن الله كان قد توفاه، فزرت قبره فى دمنهور وقرأت على روحه الفاتحة، عل الله يسكنه فسيح جناته».

«وفى المرة الثانية، ذهبت بمفردى وعند عودتى كانت زوجتى وطفلانا وأخواتها ينتظروننى فى المطار، وليلتها عدنا للمنزل وشربنا الشاى ولم أنم. وكانت هذه إحدى المرات النادرة فى حياتى التى سمعت فيها صوت المؤذن عند الفجر «.

كنت ساعتها أُوَدِّع الشك، «فالتاريخ والفردوس فى القلب» غير التاريخ المادى وغير الفردوس الأرضى، فهما متجاوزان لعالم المادة. وتصور هذه الكلمة الختامية **عالم التراحم وعالم الموت المفعم بالمعنى** (فى مقابل عالم التعاقد واللامعنى). وتنتهى الكلمة بسماعى صوت المؤذن عند الفجر. **أسمع صوته ولكنى لا أقيم الصلاة**، فلم يكن قد حان وقتها بعد بالنسبة لى، ولم أكن قد انتقلت بعد من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان. كنت أقف على العتبات أتأمل وأتفكر بلا توقف ولا هوادة.

*** حىَّ على الصلاة**

مع آذان المؤذن، **كان على أن أنتظر بضع سنوات أخرى قبل أن أقيم الصلاة**، وحينما فعلت، كنت أفعل ذلك فى بداية الأمر لأعطى ابنى حرية الاختيار بين الشك والإيمان (فقد قرأت أن الشاعر وليام بتلر ييتس William Butler Yeats كان ساخطًا على أبيه الملحد لأنه حرمه من المقدرة على الإيمان وجعله بديلًا غير مطروح. لذلك حينما بدأ يشعر بالحاجة إلى الإيمان بشىء يتجاوز عالم المادة، وهو شعور إنسانى فطرى، غرق فى الغيبيات مثل تحضير الأرواح، وانتهى به الأمر إلى أن أسس عالمًا أسطوريًّا كاملًا يشبه الدين فى كثير من الوجوه). كنا نؤدى صلاة الجمعة معًا، ولكن فى جامع أثرى فندرس

المسجد وقيمته المعمارية والحضارية بعد الصلاة، ونأخذ معنا كتبًا إرشادية، وكأننى كنت أريد أن أكون مصليًا وسائحًا فى الوقت ذاته. إلى أن **أقمت الصلاة فى أوائل الثمانينيات خالصةً** لوجه الله، وأصبح اهتمامى المعمارى جزءًا من إيمانى وليس مسوغًا له.

حصاد الرحلة

الثمرة الرابعة والسبعون...

الإيمان والإنسان

لعل العنصر الحاسم فى انتقالى من عالم المادية الضيق إلى عالم أكثر رحابة، هو «**تبلور النموذج الإيمانى الكامن فى وجدانى منذ الصغر وتحوله إلى النموذج الحاكم**». يذهب هذا النموذج إلى أن:

الإنسان كائن حر يصنع التاريخ

جزء من الطبيعة ومستقل عنها ولا يمكن أن يُردَّ إليها

كائن له منتاجاته الحضارية التى تمنحه خصوصيته القومية والإنسانية

إنه الإنسان الإنسان (عكس الإنسان الطبيعي/ المادى)

بذلت محاولات شتى لإبقاء هذا النموذج داخل إطار مادى، فكان مفهومى عن الإله الخفى والعنصر الكونى من محاولاتى ألا «أسقط» فى الميتافيزيقا. ولكن ما حدث هو العكس تمامًا، إذ فتح مفهوم العنصر الكونى فى الإنسان (المفاهيم والقيم اللامادية الثابتة) الباب على مصراعيه للميتافيزيقا (الإيمان بوجود شىء فى عالم الطبيعة ولكنه لا يُردُّ بأكمله إليها).

obeikandl.com

وبذا أصبح عالمنا يحتوى على المحدود (المادى) واللامحدود (الذى لا يمكننا الإحاطة به حتى ونحن ندرك مظاهره). **وإذا كان اكتشافى للشر فى النفس الإنسانية ومحاولة تفسيره قد قادنى بعيدا عن الإيمان، فإن اكتشافى للخير فى النفس الإنسانية عاد بى إلى عالم الإنسانية والإيمان.**

لاحظت من حولى ثنائيات تحتاج لتفسير. ثنائية المادة واللامادة، الطبيعة وما هو ليس بطبيعة، الإنسانى وغير الإنسانى. ولتفسير هذه الثنائيات كان لا بد من الإقرار بثنائية أساسية تفرزها: ثنائية عالم الصيرورة (الأمر الواقع) ونقطة ما تقع خارجه (نقطة ثابتة منزهة متجاوزة) هى نفسها ضمان ثبات الإنسان وانفصاله عن الطبيعة، هذه النقطة هى الإله. فكأنه **لا يمكن تفسير ظاهرة الإنسان المستقل عن الطبيعة إلا بوجود الخالق ﷻ، المفارق للطبيعة/ المادة.** لهذا أرى أنه حينما أعلن نيتشه موت الإله فإنه كان يعلن – فى واقع الأمر – موت الإنسان، فإذا مات الإله – على حد قوله – كان على الإنسان أن يعيش فى عالم مادى طبيعى، شىء مصمت، ويتحول هو نفسه إلى كائن طبيعى مادى يقف «شيئًا» بين الأشياء، أى أنه هو الآخر يموت، وهذا ما عبَّرت عنه الآية الكريمة بقولها: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:19].

*** المعراج: عرج بى الإنسان/الإنسان إلى الله**

وهكذا، بدلًا من الوصول إلى الإنسان من خلال الله (أن أعرف سمات الإنسان الإنسان من خلال الكتب السماوية)، وصلت إلى الله من خلال الإنسان، ولا يزال هذا هو أساس إيمانى الدينى، وهو ما أسميه «**الإنسانية الإسلامية**» التى تنطلق من رفض الواحدية المادية وتصر على ثنائية الإنسان والطبيعة/ المادة، وتصعد منها إلى ثنائية الخالق والمخلوق. ولم يحدث التحول الكامل من الرؤية المادية الواحدية إلى هذه الثنائية إلا فى أوائل الثمانينيات، أى

أن عملية مقاومة الإيمان من جانبى دامت ما يزيد على ربع قرن. وبالتدريج تحول الإيمان إلى رؤية شاملة للكون، وإطار للإجابة عن كل التساؤلات.

*** أيها الإنسان... من أنت؟.**

وصفت الإنسان فى الموسوعة بالكلمات التالية:

أولا: إن **إنسانية الإنسان** تعبِّر عن نفسها من خلال مظاهر عديدة من بينها النشاط الحضارى (الاجتماع الإنسانى – الحس الخلقى – الحس الجمالى – الحس الدينى).

ثانيًا: الإنسان كائن **عاقل قادر** على استخدام عقله، وقادر على تطوير منظومات أخلاقية غير نابعة من البرنامج الطبيعي/ المادى الذى يحكم جسده واحتياجاته المادية وغرائزه، وهو قادر على الالتزام بها وقادر أيضًا على خرقها، لذلك فهو الكائن الوحيد الذى لا يستجيب مباشرةً للمثيرات وإنما يستجيب لإدراكه لهذه المثيرات وما يُسقطه عليها من رموز وذكريات.

ثالثًا: الإنسان كائن **صاحب إرادة حرة** برغم الحدود الطبيعية والتاريخية التى تَحدُّه. وهو كائن واع بذاته وبالكون، قادر على تجاوز ذاته الطبيعية/ المادية وعالم الطبيعة/ المادة.

رابعًا: الإنسان هو الكائن الوحيد الذى **يتميَّز كل فرد فيه بخصوصيات** لا يمكن محوها أو تجاهلها. فالأفراد ليسوا نسخًا متطابقة يمكن صبها فى قوالب جاهزة وإخضاعها جميعًا لنفس القوالب التفسيرية، فهو ظاهرة متعددة الأبعاد ومركبة غاية التركيب ولا يمكن اختزاله إلى بُعد واحد من أبعاده أو إلى وظيفة واحدة من وظائفه البيولوجية أو حتى إلى كل هذه الوظائف.

خامسًا: الإنسان هو الكائن الوحيد الذى **يطرح تساؤلات عما يُسمَّى «العلل الأولى»** (من أين جئنا؟ وأين سينتهى بنا المطاف؟ وما الهدف من وجودنا؟). وهو لا يكتفى أبدًا بما هو كائن ولا يرضى بسطح الأشياء؛ فهو دائب النظر والتدبر والبحث، يغوص وراء الظواهر ليصل للمعانى الكلية الكامنة وراءها. وهذه كلها تساؤلات تجد أصلها فى البنية النفسية والعقلية للكائن البشرى (النزعة الربانية).

سادسًا: لا تُوجَد أعضاء تشريحية أو غدد أو أحماض أمينية تشكل الأساس المادى لهذا الجانب الروحى أو الربانى فى وجود الإنسان وسلوكه، لهذا فهو يشكل ثغرة كبرى فى البناء الطبيعي/ المادى. وهو ليس جزءًا لا يتجزأ من الطبيعة وإنما هو جزء يتجزأ منها، **يوجد فيها ويعيش عليها ويتصل بها ولكنه ينفصل** عنها. قد يقترب منها ويشاركها بعض السمات، ولكنه لا يُردُّ فى كليته إليها بأى حال، فهو دائمًا قادر على تجاوزها، وهو لهذا **مركز الكون وسيد المخلوقات**. وهو، لهذا كله، لا يمكن رصده من خلال النماذج المُستمَدة من العلوم الطبيعية.

سابعًا: أصبح الإنسان فى منظومتى كائنًا يعيش فى عالم الطبيعة/ المادة ولكنه يحوى داخله عناصر غير طبيعية، أى متجاوزة للطبيعة، **يتسم بثنائية الروح والمادة**، ومن ثم فإنه تتنازعه نزعتان: نزعة للعودة إلى الطبيعة/ المادية (أسميها النزعة الجنينية)، وأخرى للإحساس بالاستقلال عنها وتجاوزها (أسميها النزعة الربانية).

ثامنًا: إذا كان الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على تجاوز ذاته الطبيعية، فهو أيضًا **الكائن الوحيد القادر على الارتداد عنها**. ولذا نجد أن الخير والشر ظاهرتان إنسانيتان لا علاقة لهما بعالم الحيوان.

الثمرة الخامسة والسبعون...

ثم الإسلام

تنوع مصادر تجربتى الدينية

هذه هى رحلة الانتقال فى الزمان والمكان والفكر ثم العودة إلى الجذور، رحلة طويلة وشاقة، نتيجة تأمل طويل فى الذات الإنسانية وفى الكون، واقتناع بفشل النموذج المادى فى تفسير ظاهرة الإنسان، وإدراك لأهمية البعد الدينى فى حياة الإنسان.

كان هناك وقبل كل شىء **المخزون الضخم داخلى من التراث الدينى الإسلامى وتجربتى مع المجتمع التقليدى فى دمنهور فى طفولتى وصباى.** ففى سن الثالثة عشرة، كنت قد **قرأت القرآن عدة مرات** وعرفت الكثير من **الأحاديث النبوية الشريفة،** وكنت كذلك قد قرأت **كتاب فقه السنة** للشيخ سيد سابق، ولذا كنت أعرف الفروق الدقيقة بين المذاهب الأربعة فى كثير من الأمور. وكنت أعرف كذلك الكثير من **قصص السيرة والخلفاء والصحابة،** كما كان لى معرفة **بتاريخ المسلمين.**

وقد عدت لقراءة القرآن مرة أخرى، والكتب التى تتناول التراث الإسلامى، بما فى ذلك **الفلسفة الإسلامية.** وكان هناك بعض **المفكرين الإسلاميين** مثل مالك بن نبى وسيد حسين نصر وفضل عبد الرحمن الذين قرأت كتاباتهم وساعدتنى على فهم الإسلام بطريقة جديدة تجيب عن كثير من تساؤلاتى. وقد تراسلت بعض الوقت مع الأستاذ سعيد رمضان (رحمه الله) الذى كان كريمًا معى فكان يرد على رسائلى.

وقد ساعدتنى **دراستى للأدب،** خاصة الأدب **الرومانتيكى،** وكذلك **اللاهوت المسيحى** على تعميق إحساسى الدينى وإحساسى بتركيبية الوضع

الإنسانى. ولا أنسى كلمات القديس أوغسطين St. Augustine: «أنت لن تحب الرذيلة بسبب الرجل، ولن تكره الرجل بسبب الرذيلة، بل فلتحب الرجل ولتكره الرذيلة». وهى لا تختلف كثيرًا عن قول علىّ بن أبى طالب: «لا يُعرف الحق بالرجال، وإنما يُعرف الرجال بالحق». كما أننى أُعجب كثيرًا **بالموسيقى الكنسية ومعمار الكاتدرائيات الكاثوليكية**، وأحرص على زيارتها والتأمل فيها بحُسبانها تعبيرًا متميزًا عن تجربة دينية عميقة.

وقد تعرفت إلى **الحاخام يوسف بيخر** Youssef Becher فى أثناء إقامتى فى الولايات المتحدة، وهو حاخام أرثوذكسى أمريكى من أصل شرق أوروبى، وكان يُكرس جل وقته للحرب ضد الصهيونية بحُسبانه يهوديًا مؤمنًا وبحُسبانها حركة كفر وهرطقة. وقد أهديته كتابى أرض الوعد: «إلى يوسف بيخر، محب صهيون». وأميِّز فى الكتاب بين الحب الدينى لصهيون، وهى رغبة روحية لتجاوز العالم المادى (وأنا كمسلم ليس عندى أى مشكلة مع مثل هذا التطلع الدينى) وبين الشهوة الاستيطانية، أى الرغبة الصهيونية فى الاستيلاء المادى على فلسطين من جهة أخرى، تلك الرغبة التى ما زلت أقف ضدها بكل ما أوتيت من قوة، انطلاقًا من أنها قمة الرفض للظلم والتفاوت بين البشر.

لعلك لمست من هذه التفاصيل **تنوع مصادر تجربتى الدينية**. فبرغم أننى تبنيت الإسلام فى نهاية الأمر، رؤية للحياة وأيديولوجية ومرشدًا للسلوك، فإن المسار الذى قادنى إليه كان متنوعًا ومركبًا ومختلفًا عن المسار العادى. ولا شك فى أن هذا قد ترك أثره على رؤيتى الدينية وعلى سلوكى تجاه الآخرين ممن هم ليسوا من أبناء ملتى واعتقادى.

*** كيف نتعامل مع الآخر؟**

إن **الرقعة المشتركة بين الأديان، فى المجال الأخلاقى، واسعة**. لذا أرى أنه يجب التوصل إلى «**عقد اجتماعى**» يستند إلى هذه الرقعة المشتركة، على

أن تُناقش الخلافات العقائدية فى أقسام العقائد ومدارس اللاهوت. (وهى خلافات حقيقية، عادةً لا يفهمها البشر العاديون برغم معاركهم الدائمة بشأنها!) والنقاش هناك سيكون نقاشًا علميًّا هادئًا، ولن يتحول إلى مذابح لا عقلانية، لا تفيد أحدًا سوى أعداء الله والإنسان والأخلاق. مما يستحق الذكر أن هذه هى الطريقة المصرية فى التعامل مع الدين، فحتى عهد قريب كانت تسود المجتمع معايير أخلاقية عامة بخصوص العيب والمباح، والحشمة والتبرج، والأصول وما هو خارج عنها، **معايير يتقبلها الجميع، ويسلكون فى إطارها**، دون أن **يتحدث أحد قط فى العقائد**.

*** لماذا الإسلام؟.**

بقيت مدة من الوقت مؤمنًا بالله وبالإسلام، ولكن إيمانى بالإسلام لم يكن له أى أساس فكرى وفلسفى واضح فى ذهنى (وأنا لا أقبل شيئًا إلا إذا كان له أساس فلسفى). وقد حيرنى هذا السؤال بعض الوقت، لِمَ الإسلام وليس أى دين آخر؟ وحيث إننى أحب أن أكون أمينًا - قدر طاقتى - فى الأمور الفكرية، فقد كنت أذكر لأصدقائى أنه لا يوجد سبب واضح، ثم **أدركت الإجابة**:

أولا: عندما تبلورت قضية «**وحدة الوجود**» فى ذهنى، وضرورة وجود مسافة بين الخالق والمخلوق، وجدت **أن الإسلام هو أكثر العقائد ابتعادًا عن فكرة توحد الخالق بمخلوقاته (وحدة الوجود)**، أى أن التوحيد فى إطار الإسلام - فى تصورى - هو أكثر أشكال التوحيد رقيًا وتساميًّا.

ثانيًا: أدركت ما أسميه «**النسبية الإسلامية**» وهى الإيمان بأن الله وحده هو الثابت الذى لا يتحوَّل وما عدا ذلك فمتغيِّر، وهو وحده الذى يحيط بكل شىء ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:

58] و﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:67]. أما نحن البشر فلا نعرف إلا جزءًا من الحَقيقة، مما **يسمح بتعدد الرؤى. والنسبية الإسلامية التى أدعو إليها لا تؤدى إلى العدمية** (كعدمية النسبية المادية المطلقة)، فهى **نسبية لا تمتد إلى المرجعية النهائية**، ومن ثم لا تؤدى إلى تعددية مفرطة فى المعانى والمرجعيات، بحيث يصبح العالم بلا معنى وبلا مركز.

ثالثًا: من المفاهيم المركزية فى تصورى، أن الله ﷻ ليس إله العرب أو المسلمين أو قوم أو عِرْق دون الأقوام والأعراق الأخرى، بل هو رب العالمين أجمعين، يشملهم جميعًا بعدله ورحمته، وبذلك **يصبح الإسلام من أكثر العقائد تسامحًا وقبولًا للآخر**، برغم أنه يحدد الحدود ويضع الفواصل.

ويمكننى القول: إن إيمانى أساسًا **إيمان عقلانى** (بل يمكن أن يوصف بأنه جاف)، فأنا لا أشعر بأى شىء يشبه شعور المتصوفين، ولا أنفعل دينيًّا إلا نادرًا. ومن تلك اللحظات النادرة التى انفعلت فيها، زيارتى للكعبة لأول مرة، كنت أسمع عن بعض المسلمين ممن يشفهم الوجد ويقعون فى غرام الكعبة، ولا يشفيهم من وجدهم هذا إلا أن يقوموا بزيارتها مرةً أخرى، وأعترف بأننى مارست شيئًا من هذا القبيل بعد زيارتى للكعبة. ومع هذا تظل تجربتى الدينية عقلانية فى جوهرها.

***